

المصادر العربية لتاريخ شرق إفريقيا

للكنور جمال زكريا قاسم

تقتضى دراستنا للمصادر العربية التى تعرضت لتاريخ شرق إفريقيا أن نقسمها إلى المصادر العربية العامة ، والمصادر المحلية ، كما يقتضى تسهيل الدراسة تقسيم شرق إفريقيا إلى العصور التاريخية التى مر بها والتى يمكن استجلاء بعض معالمها بقدر ما نجده متوافراً أمامنا من المادة المستقاة من هذه المصادر بنوعها . وسوف نقتصر في تعرضنا للمصادر التاريخية العربية عن شرق إفريقيا على منطقة ساحل شرق إفريقيا التى يمكن تحديدها بخليج دجلادو في الجنوب إلى رأس جردفون في الشمال ، وهى المنطقة الساحلية التى كان يطلق عليها العرب برالزنج ، وما يليها من الداخل ، أما منطقة شرق إفريقية الواقعة شمال رأس جردفون فزجئها إلى دراسة تالية بدأنا في إعدادها . والسبب في ذلك التقسيم يرجع في الدرجة الأولى إلى أن المنطقة الشمالية مرت بتطورات تاريخية تختلف عن التطورات التاريخية التى شهدتها المنطقة الساحلية الجنوبية من شرق إفريقيا وهى موضوع الدراسة .

وقد تميزت هذه المنطقة من الساحل باصطدامها مع البرتغاليين ، ثم بقيام دولة عربية استطاعت أن تجمع تحت أوائها جميع إمارات الساحل ، ونرى أن نقسم التاريخ الذى مرت به هذه المنطقة إلى : العصر القديم - العصر الإسلامى - العصر البرتغالى - العصر العماني ، ثم نختتم هذه الدراسة بخضوع المنطقة للسيطرة الاستعمارية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، غير أن ما يلاحظ أن الفترة التى سبقت مجئ البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر لاتزال تلفت أنظار الباحثين وتدفعهم إلى استجلاء الكثير من معالمها ، لأن هذه الفترة كانت فيها المنطقة بعيدة عن مجال الاحتكاكات الأوربية ، ولذلك لاتوجد بطبيعة الحال مصادر أوربية أصيلة إلا منذ أن وصل البرتغاليون إلى المنطقة وبدأت تظهر المؤلفات عنها

ابتداء من القرن السادس عشر والتي بدأت بما كتبه الرحالة البرتغاليون من رواد حركة الكشف الجغرافي من أمثال فانسكودى غاما Gama وكاستنهيديا وجويز وباربوسا وغيرهم كثيرون . وإذا كان يسهل على المؤلف الكتابة في تاريخ شرق إفريقيا الحديث فإن الصعوبة لاتزال تواجه الباحثين عند تصديهم للدراسة بعض جوانب من تاريخ الشرق الأفريقي القديم أو الوسيط ، فالتاريخ القديم لاتزال حتى الآن تتشكل ملامحه وفقاً على النتائج التي تتوصل إليها بعثات الكشف والتنقيب التي بدأت تمارس نشاطها في السنوات الأخيرة في محاولات مطردة لاستجلاء ماغمض من تاريخ هذه المنطقة ، ثم هناك أيضاً ذلك التراث الأغريقي النادر المعروف بالدليل الملاحي للبحر الأرتيري الذي كتبه أحد الأغارقة في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي^(١) . أما التاريخ الوسيط لشرق إفريقيا فيطلق عليه بالعصر الإسلامي ، ويمكن تحديده من القرن السابع الميلادي إلى وصول البرتغاليين إلى شرق إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، ففي خلال هذه الفترة سيطر المسلمون من العرب على هذه المنطقة ، ومعلوماتنا عن هذه الفترة لاتزال تحتاج إلى مزيد من الاتساع . ونحن نعتمد في معلوماتنا عن تاريخ هذه المنطقة على المصادر المحلية وأقصد بها المؤلفات التي كتبها أناس عاشوا في المنطقة وهي مدونه باللغتين السواحلية والعربية ، ويبرز منها كتاب السلوة في أخبار كلوة ، المأخوذ عن سنة الكلاوية ، ويتعرض هذا الكتاب لتاريخ المنطقة من القرن العاشر الميلادي إلى وصول البرتغاليين إلى كلوة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي وسوف نتعرض لذلك الكتاب فيما بعد .

أما المصنفات العربية العامة فإنها كثيرة ومتنوعة وهي تشكل مادة أساسية يمكن التعرف بها على تاريخ هذه المنطقة على الرغم من أن القليل منها هو الذي يلقي الضوء على الساحل .

وسوف نتعرض في هذه الدراسة للمصادر العربية التي يمكن الاستدلال منها على تاريخ شرق إفريقيا سواء العام منها أو المحلي مع ملاحظة أنه لاتوجد

(١) انظر دكتور جمال زكريا قاسم : استقرار العرب في ساحل شرق إفريقيا العدد العاشر من حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس .

لدينا مصادر عربية تعرضت لتاريخ المنطقة قبل القرن التاسع الميلادي ولكن ابتداء من هذا القرن تطرد المعلومات التي يمكن تجميعها من هذه المصادر التي أشرنا إليها بنوعها .

وقد يكون من المناسب أن نبدأ بالمصادر العربية العامة التي تكون سلسلة متصلة الحلقات تبدأ من القرن التاسع الميلادي وتنتهي في القرن الخامس عشر الميلادي، ويمكن أن نتبع من خلالها تقدم معلوماتنا واتساعها من قرن إلى آخر ولكن الذي يستوجب الأسف حقيقة أن تقدمنا في جمع المعلومات ليس مطرداً بالنسبة لتوالي السنين فهذه المصنفات ، باستثناء القليل منها ، ليست موفية بالحاجة في حين أن واضعيها العرب كانوا أولى من غيرهم بأن يزودونا بمعلومات وافية عن بلاد كانت تشكل جزءاً من العالم الإسلامي . ولكن قد يكون ذلك راجعاً في تقديرنا إلى أن هذه المناطق ، عدت في ذلك الوقت متطرفة عن مركز العالم الإسلامي ، ومن ثم فلم تحظ بشئ كبير من اهتمام هؤلاء المصنفين . ومن ناحية أخرى فإن كثيراً مما كتبه العرب في هذه الفترة كانت تخالطه الأسطورة أو الخيال إذ كانت منطقة شرق إفريقيا من المصادر الهامة لأساطير الجغرافية في الأدب العربي^(١)، ولكن ذلك لا يمنع من استخلاص بعض الحقائق والصور الحية عن تاريخ المنطقة اعتماداً على هذه المؤلفات .

وعلى الرغم مما يأخذه المستشرقون على هذه المصنفات من قصور واضح بالنسبة لمعالجتها منطقة شرق إفريقيا فإن هذه المصنفات مع ذلك، وفي تقديرى، ذات أهمية بالغة، ويكفى أن نقول أنها حاولت إلقاء بعض الضوء على شرق إفريقيا في الوقت الذي لم تذكر فيه المصادر الأوروبية شيئاً عن هذه المنطقة باستثناء ما ذكره ماركو بولو Marcopolo الذي قام برحلاته في عام ١٢٩٥ وأورد بعض المعلومات الطفيفة عن مقديشيو وزنجبار وتجارة الأخيرة بالعاج على وجه خاص^(٢) .

(١) كراتشكوفسكى (اغناطيوس بوليانوفتش) تاريخ الادب الجغرافى عند العرب (مترجم) القسم الاول ص ١٤١
(٢) Cf. Travels of Marco Polo Trans A. Ricci, pp. 341-345.

ويمكن أن نعرض للمصنفات العربية التي أشارت إلى شرق إفريقيا ابتداء من القرن التاسع الميلادي وهي أول ما يمكننا الوصول إليه من هذه المصنفات. ويبرز أمامنا في منتصف ذلك القرن سليمان التاجر، وكتابات من النوع الذي نسميه أدب المغامرات أو القصص البحرية، وقد ترك التاجر سليمان وصفاً حياً للسواحل والجزر والموانئ المختلفة والمدن وسكانها والمحاصيل والمنتجات وبلغ التجارة، كما نجد في كتاباته وصفاً شيقاً لأخبار الملاحة في المحيط الهندي وقد وصف بلاد الزنج بقوله « وبلادهم واسعة الأرجاء ونباتاتهم لا تنمو إلا سوداء في لون بشرتهم »، ونظراً لعدم وجود معلومات عن سليمان نفسه فإن البعض قد تشكك في نسبة القصص إليه إلى أن أكد المستشرق الفرنسي جبريل فراند Ferrand صحة نسبة هذه القصص إليه. وقد لقيت هذه القصص عناية خاصة من العلامة رينو Renaud في منتصف القرن التاسع عشر كما أخرج سوفاجيه آخر دراسة لها في السنوات الأخيرة^(١).

وفي عام ٨٨٦ أشار ابن خردادبه لبلاد الزنج^(٢). والمعروف كما يقرر كراتشكوفسكى أن جميع مؤلفات ابن خردادبه وأشهرها كتاب المسالك والممالك لا نعرفها إلا من أسماؤها فقط، ومن المقتطفات الموجودة لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشارات إليها في المراجع المختلفة^(٣).

وفي أوائل القرن العاشر الميلادي يسترعينا كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ٢٩٠ - ٩٠٣ م، ثم الجغرافي الفارسي أبو علي بن رسته في كتابه الأعلاق النفيسة، الذي كتبه بعد عشر سنوات من ابن الفقيه ٣٠٠ - ٩١٣ والذي لم يبق منه سوى الجزء السابع في الفلك والجغرافية، ولكن هذين المصدرين أو المادة المتبقية لنا منهما على الأقل لم يتعرضا إلا بإشارات بسيطة إلى بلاد الزنج التي اعتبرها ابن رسته إحدى حدود العالم الذي كان معروفاً في ذلك الوقت.

(١) كراتشكوفسكى تاريخ الأدب الجغرافي القسم الأول ص ١٤١

(٢) دافيدسون، إفريقيا تحت أضواء جديدة ترجمه جمال أحمد

ص ٢١٨

(٣) كراتشكوفسكى - تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب القسم الأول

ثم تبدأ المعلومات تتضح بصورة أكبر حينما نطالع ما كتبه أبو زيد السيرافي (١)
(٨٧٧ — ٩١٥) الذي يعتبر أول من قدم لنا معلومات متصلة عن المنطقة .

وكان السيرافي يعاصر المسعودي ولكنه مات قبل أن يبدأ المسعودي رحلاته في شرق إفريقيا . ولم يكن أبازيد السيرافي ، وينسب إلى سيراف على الساحل الشرقي للخليج العربي ، رحالة أو جواب آفاق وإنما كان مؤلفاً اقتصر على جمع وتدوين قصص التاجر سليمان (٢) ، وأضاف عليها ماعرفه من روايات نقلها عن التجار الذين جابوا البحار الشرقية بعد أن غير وبدل من كيائها ، ولذلك تبدو كتاباته على أنها نوع من أساطير البحار . ومع ذلك فإن السيرافي يمكن اعتباره من أول المصنفين الذين كتبوا باللغة العربية يؤكد اتصال العرب بالساحل الشرقي لأفريقيا وهو يورد لنا ذلك في حديثه عن بلاد الزنج فقد ذكر عنها بالإضافة إلى ما نقله عن التاجر سليمان أن بها ملوك يغزو بعضهم بعضاً وأن أهل الزنج يحترمون العرب الذين لهم في قلوبهم هبة عظيمة فإذا عاينوا رجلاً سجدوا له وقالوا هذا من مملكة ينبت بها شجر التمر بلحلال التمر عندهم وفي قلوبهم (٣) . والواقع أن جانباً كبيراً من المعلومات المتعلقة بشرق إفريقيا في هذا العصر كانت مادة طيبة لمغامرات السندباد البحري ولقصص ألف ليلة التي كانت تتجمع في ذلك الحين ، إذ من المؤكد أن تكون بعض هذه القصص استوحيت من رحلات العرب في شرق إفريقيا (٤) ، بل إنه يوجد في ماليندة صخرة يسميها الأهالي هناك بصخرة السندباد .

(١) انظر سليمان التاجر وأبو زيد السيرافي .

Gabriel Ferrand, Relation de Voyage Tome I p. 35 FF.

(٢) راجع رينو Reinand عن أبي زيد السيرافي وسليمان التاجر

Cf. Relation de Voyages fait par les Arabes et Persans a l'Inde et de la Chine, Tome I pp. LV FF.

(٣) انظر سلسلة التواريخ — دار الطباعة السلطانية بباريس ١٨١١

ويوجد هذا الكتاب ملحقاً بكتاب رينو

Cf. Reinand, Relation de voyages Tome II pp. 131 ff.

Texte Arabes imprime en 1811 par le soin de jeu lanqlès.

(٤) انظر عن الرحلات العربية في المحيط الهندي

Reinand, Relation des Voyages fait par les Arabes et Persans dans l'Inde et de la Chine 2 Tomes Paris 1845.

وتطرد معلوماتنا عن القرن العاشر بظهور المسعودى الذى بدأ رحلاته في شرق إفريقيا بعد وفاة السيرافى مباشرة، فالمعروف أن المسعودى تردد على المنطقة في الفترة من ٩١٦ إلى ٩٢٦ إذ كان له أكثر من رحلة في المنطقة ويصفه بعض المستشرقين بهيردوت العرب^(١). ولكن للأسف أننا لا نملك من آثار المسعودى إلا كتابين لاسبيل إلى التعرف على دنيا العرب التجارية في عهدها الزاهر الا بهما خاصة ما اتصل منها بساحل إفريقيا الشرقي، وأشهر هذين السفرين كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، أسماء هكذا ليشير رغبة القراء في الاطلاع على ماكتبه . ويبدو أن هذا السفر الخالد انتهى من تصنيفه في عام ٩٤٧ وليس هذا الكتاب مرجعاً للحقائق وتفاصيلها الدقيقة فحسب وإنما هو ولا ريب خير ماكتب رحالة العصور الوسطى .

ولكن ما يؤخذ على المسعودى أنه على الرغم من إفاضته بالحديث عن شعوب الزنج إلا أنه لا يتحدث عن اتصالات مباشرة وقعت بينه وبين سكان المناطق التي زارها مما يجعلنا نذهب إلى القول أن معظم المعلومات التي أطلعنا عليها المسعودى، إن لم تكن كلها، ربما يكون قد أخذها من أحاديثه مع البحارة الذين سافر معهم في رحلاته . ومع ذلك فإن المسعودى بكتاباته قد أضاء الطريق أمام الباحثين في تاريخ هذه المنطقة^(٢) .

تحدث المسعودى عن بحر الزنج ووصفه بالخطورة في عبارة شهيرة قال المسعودى «ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلمزم واليمن وأصابني فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرة فلم أجد أهول من بحر الزنج . . . فموجه عظيم كالجبال الشواقي وهو موج أعمرى يريدون بذلك أنه يرتفع ارتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد» وقد وصل المسعودى إلى شرق إفريقيا بصحبة بحارة من عمان وسيراف ، يقول المسعودى وقد ركبت هذا البحر من مدينة سنجار

(١) Freeman — Grenville The Medieval History of the Coast of Tanganyika p. 40 Berlin 1962.

(٢) بازل دافيدسون (مترجم) إفريقيا تحت أضواء جديدة

(صحار) من بلاد عمان ، وسنجرار قصبة بلاد عمان في جماعة من نواخذه السيرافيين وهم أرباب المراكب ، وركبت فيه سنة أربع وثلاثمائة من جزيرة قنبلو إلى عمان وذلك في مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السيرافي « (١) .

وعلى الرغم من أن القرن العاشر الميلادي شهد تأسيس كثير من المدن والإمارات العربية التي قامت في ساحل شرق إفريقيا فإن المسعودي لا يتحدثنا عنها وإنما اقتصر في حديثه عن الزنج وأنهم كانوا مجموعات من الشعوب وليسوا شعباً واحداً يعيشون في إقليم يمتد مسافة ٢٥٠٠ ميل على الساحل صوب الجنوب في المنطقة الممتدة فيما يعرف حالياً بالقرن الإفريقي شمالاً إلى موزمبيق جنوباً، وفيما يبدو أن المسعودي قد وصل إلى أقصى منطقة وصل إليها العرب فقد ذكر أنه وصل إلى أقصى بلاد الزنج وإليها تقصد المراكب العمانية والسيرافية وهي غاية مقاصدهم في أسافل بحر الزنج ، وذكر أن أقصى بحر الزنج هو بلاد سفالية وأقاصيه بلاد واق الواق وهي أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب خصبة حارة، ولم يذهب أحد من قبله ولا من بعده من الرحالة العرب وراء هذه المنطقة . والأرجح الذي يقول به المؤرخون العرب هو أن العرب لم يجدوا ما يسافرون من أجله فلم يكلفوا أنفسهم مشقة بعد هذه المنطقة إذ كانت سفالية تدمهم بكل ما تستطيع مراكبهم أن تحمل من عاج أو ذهب .

وقد بدأ المسعودي قصته عن شرق إفريقيا بالأسطورة القديمة عن الهجرات التي تحدثنا عن أبناء كوش وكيف اتجهوا يميناً بين الشرق والغرب وسكنوا الجزء الشرقي في أفريقيا والجنوب الشرقي وكونوا شعوب النوبة والبجة ، والزنج وحدهم هم الذين تآبروا سيرهم جنوباً وراء النيل الأعلى وهم الذين فيما يقول المسعودي اتخذوا دار مملكة وملكوا عليهم ملكاً سموه وقليمن وهي سمة لملوكهم في سائر الأمصار ويركب وقليمن — وهو يملك ملوك سائر الزنج — في ٣٠٠ فارس ودوابهم البقر وليس في أرضهم خيل

(١) انظر المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، نشر دار الرجا بالقااهرة ج ١ ص ٣٢٨ — ٣٣٣

ولا إبل ولا يعرفونها وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد . ولعل أهم وأمتع ما كتبه المسعودى هو حديثه عن هذه المملكة وأشار إلى غناها بالذهب وأن الزنج بنوا عاصمتهم في أقصى الجنوب لتكون على مقربة من المناطق التى يستخرج منها الذهب الذى يصدرونه بكميات وافرة ، ولعل المسعودى يكون بذلك أول من أشار إلى مناجم الذهب في روديسيا . ولكن المسعودى لا يخبرنا أين كانت عاصمة الوقليمن ولا في أى سنة أنشأت غير أنه من المستبعد أن تكون هذه العاصمة في سفالية لأنها كانت محط تجار العرب في ذلك الحين . وقد ذكر ابن سعيد أن عاصمة وقليمن كانت في سنا وربما هى نفسها التى اكتشفها البرتغاليون على بعد ١٥٠ كيلو مترا من الساحل على نهر الزمبيرى وبنوا بها قلعة من أهم قلاعهم . وذكر المسعودى عن الزنوج بأنهم مهرة في أشغال المعادن وفي التجارة وفي الزراعة أيضاً حيث ذكر بعض محصولاتهم ، وفي صيد الأفيال لعاجها النفيس ، وأنهم يحرصون على الحديد أكثر من حرصهم على الذهب ، ولعل ذلك لكثرة إنتاجهم من الذهب ، وأن الزنوج يقتلون ملكهم حينما يحور عليهم وأن ملكهم يدعى وقليمن ومعناه ابن الرب الكبير الذى عندهم مالك السموات والأرض ويسمونه مكلنجلو ، وأنهم أهل خطابة وفصاحة بلغاء في أحاديثهم .

يقول المسعودى في اختصار جامع الزنج مع كثرة اصطياها من القيلة وجمعها لعاجه غير منتفعة بشيء من ذلك في آلتها وإنما تتحلّى الزنج بالحديد بدلا من الذهب والفضة ، ثم يذكر المسعودى ما يزرع الزنج وما يأكلون فيقول والغالب على أقوات الزنج الذرة ونبات يقال له الكلارى ويشبه القلقاس ومن غذائهم أيضاً العسل واللحم ، وللزنج جزر عدة قريبة من الساحل ينتفعون بما تنتج من فواكه ويحبون الخطابة وفن الكلام ولغتهم تعين على ذلك . ويقوم في القوم منهم رجل تقى يحثهم على طاعة الله والإمتثال بأوامره وينذرهم العقاب الأليم إن لم يخضعوا له ويذكرهم أكثر الأحيان بما حل بأسلافهم من خراب حين نسوا كلمة الله^(١) .

وركز المسعودى في رحلاته في شرق إفريقيا على جزيرة قبلو ذكر عنها أنها جزيرة حارة. فيها قوم من المسلمين بين كفار الزنوج وكلهم في حكم أمير مسلم إلا أن لغتهم زنجية وتتردد عليها المراكب العمانية . وقد ذكر أنه وصل إلى قبلو في رحلته من مدينة سنجار في جماعة من البحارة السيرافيين ثم عاد في عام ٣٠٤ من جزيرة قبلو إلى عمان . ويبدو من كتابات المسعودى أن العرب كانوا قابضين على زمام الملاحة في المحيط الهندي خاصة الجزء الملاصق لساحل إفريقيا الشرقي^(١) .

وقد حدد المسعودى تاريخ استقرار المسلمين في قبلو بقرن ونصف قرن من رحلته إذ قال إن المسلمين غلبوا على هذه الجزيرة وسبوا من كان فيها من الزنوج وذلك في بدأ الدولة العباسية . ولكن التاريخ الذى ذكره المسعودى لانكاد نطالع له أى ذكر لتأسيس أية إمارة عربية أو هجرة ملحوظة إلى شرق إفريقيا ، ولعل المسعودى تجاوز في تحديده نزول العرب بهذه الجزيرة بضع سنوات عن هجرة الزيديين وإذا صح هذا التجاوز وهو لا يتعدى سنوات قليلة على أية حال نستطيع إذن أن نرجع نزول العرب في جزيرة قبلو بأنه كان نتيجة لهجرة الزيديين إلى الساحل الشرقي لأفريقيا .

ولكن الموضوع الذى أثار الجدل هو أية جزيرة يعنيها المسعودى بقبلو؟ حقيقة أن المسعودى وضع بعض التحديدات الجغرافية الخاصة بموقع هذه الجزيرة ، ولكن نظراً لكثرة عدد الجزر الموجودة على ساحل شرق إفريقيا فإننا لانستطيع أن نحدد بالضبط واحدة منها .

وهناك بعض الباحثين من أمثال رينو Reinaud يميلون أن تكون مدغشقر هي الجزيرة المقصودة فإن التحديدات التى أشار إليها المسعودى تكاد تنطبق على جزيرة مدغشقر إلى حد كبير ، وإن كنا نعجب لماذا لم يتحدث المسعودى عن كبر مساحة هذه الجزيرة إذا صح أن تكون قبلو هي جزيرة مدغشقر التى كان يعنيها .

(١) راجع في ذلك حورانى - الملاحة البحرية في المحيط الهندي وكذلك آدم متز الحضارة الإسلامية (مترجم) ج ٢ ص ٤٢٩ - ٤٣٠
(٢) Cf. Reinand, Relation de voyages Tome I pp. 131-133.

أما القبطان جيان **Guillain** فيميل إلى اعتبار هذه الجزيرة إحدى جزر القمر ويحددها بالجزيرة الكبرى على وجه خاص وهي جزيرة ياقوت أو الأنجزيمجة ، كما كانت تعرف في ذلك الحين ، والتي سيطلق عليها الأديسي فيما بعد بجزيرة الزانج ولكن التحديدات التي أشار إليها المسعودي تختلف مع موقع الجزيرة خاصة من حيث تحديده أنها تقع على مسافة خمسمائة فرسخ من عمان إذ أنها في الواقع تقع إلى مسافة أبعد من ذلك^(١) .

ويرى البعض اعتبار جزيرة قبلو هي جزيرة زنجبار وعلى الرغم مما يستدل عليه من التاريخ المحلي لسلطنة كلوة أن العرب المسلمين وصلوا إلى هذه الجزيرة قبل زمن من رحلة المسعودي إلا أننا لا نستطيع مع ذلك أن نزعّم أن تكون قبلو هي إحدى جزر بمبا أو مافيا أو زنجبار لأننا نصطدم مرة أخرى بالتحديدات التي أوردها المسعودي بالنسبة لموقع جزيرة قبلو التي أكد فيها أن الجزيرة تبعد عن القارة بمسيرة يوم أو يومين بينما هذه الجزر التي أشرنا إليها ترى من الشاطئ ولا تبعد عنه سوى ساعات قليلة ، على أن الاعتراض الأهم ما أكدّه المسعودي أن هذه الجزيرة يحكمها مسلمون يتكلمون لغة الزنوج ولما كنا نعرف أن العرب هم الذين تغلبوا على هذه الجزر فبطبيعة الحال كانوا يتحدثون اللغة العربية ، ولهذا الأسباب لا يمكن أن نعتبر واحدة من هذه الجزر الصغيرة ما عاها المسعودي بجزيرة قبلو . أما فراند فلم يقطع برأيه في جزيرة قبلو واكتفى بأن اعتبرها إحدى الجزر التي تقع في جنوب المحيط الهندي^(٢) .

وعلى الرغم مما أوضحه رينو أن تكون جزيرة قبلو هي المقصودة بجزيرة مدغشقر إلا أننا لانميل إلى الأخذ برأيه ونميل إلى الأخذ برأى جيان في أن تكون قبلو هي إحدى جزر القمر . ونستند في ذلك على أن جيان ، وهو ربان سفينة ، على علم بالملاحة بطبيعة الحال قد أكد أنه لا يمكن الوصول إلى جزيرة مدغشقر في زمن المسعودي إلا بالوصول أولا إلى جزيرة القمر فكيف

(١) جيان - وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية

لم يحدثنا المسعودى عن تلك الجزيرة ؟ ومن ناحية أخرى أن جزيرة مدغشقر كان لها لغة خاصة تختلف عن لغة الزوج وذلك اعتماداً على أبحاث جبريل فراند Ferrand ، ثم أنه لا يمكن التسليم بفتح المسلمين لجزيرة كبيرة كهذه وتغلبهم عليها في وقت بدء هجراتهم إلى المنطقة .

وأخيراً فإن المسعودى على الرغم من أنه قدم معلومات هامة عن شرق إفريقيا إلا أنه ، وهذا مما يستوجب الدهشة حقاً ، لم يذكر لنا شيئاً عن أحوال المناطق التى حدث بها احتكاك مباشر بين العرب ومناطق الساحل التى رحل إليها . ومما لا يقبله المنطق بطبيعة الحال أن يكون المسعودى قد قام برحلاته بقصد مشاهدة جزيرة قبلودون سواها ، وأن السفن التى كانت تحمله لم ترس على جهة من الجهات غيرها واكتفى بإيراد الروايات التى سمعها من البحارة من البلاد الداخلية ، إذ أننا لا نعتقد أن يكون المسعودى قد تعمق في الداخل ويمكن أن نسلم أن المسعودى ، لعدم اتجاهه إلى دراسة الجهات التى مر بها لم يذكر المراكز التى أسسها العرب أو التى أستكشفوها على الساحل منذ عهد بعيد قبل رحلة المسعودى إلى هذه المنطقة ، وإن كان ذلك مما يستدعى الأسف لأن الزمن الذى جاء فيه المسعودى هذه المناطق كان عهد تأسيس عدة مدن صارت فيما بعد من أهم مراكز هذه الشواطىء وأرفعها شأنًا .

وفي تقديرى أن المسعودى لم يحاول لسوء الحظ أن يضع لنا صورة عما شاهده بنفسه إذ أنه لو فعل ذلك لكان من المؤكد أن يأتي لنا بأخبار أوفى وإنما اكتفى المسعودى ، كما سبق أن أشرنا ، بذكر ما توارد إليه من أحاديث البحارة الذين كانوا يصلون إلى تلك المناطق^(١) . ولو لم يذكر المسعودى صراحة أنه شاهد بعض مناطق شرق إفريقيا لحاز لنا أن نشكك في أنه لم يشاهد هذه البلاد مشاهدة عيان . ومع ذلك فإن شخصية المسعودى ربما تكون أكثر جلاء لو أن مؤلفاته الكبرى لم تمسها يد الضياع ونخص منها بالذكر كتابيه الكبيرين أخبار الزمان ومن أباده الحداث الذى يقع في ثلاثين جزءاً والكتاب الأوسط ، غير أن هذه المؤلفات مع الأسف لم تعرف إلا من خلال اقتباسات

ضئيلة ليست بذات أهمية فضلاً عن أن الشك يعتور صحة نسبتها إليه . ولا يوجد لدينا حالياً إلا مروج الذهب السابق إشارتنا إليه والذي اعتمدنا عليه في المادة التي ذكرناها هنا متعلقة بشرق إفريقية وهو أكثر مؤلفات المسعودي انتشاراً وإيجازاً ، كما يوجد من تراثه المتبقى كتاباً آخر بعنوان التنبيه والإشراف ومادته جغرافية في معظمها^(١) .

ومن القدر المتيسر لدينا من كتابات المسعودي في القرن العاشر تجذب معلوماتنا عن منطقة شرق إفريقيا حتى القرن الثاني عشر إلى ما يقرب من مائتي عام لاتطالنا في أثنائها من المصادر العربية الهامة سوى عدة كتب أغفلت إلى حد كبير الحديث عن شرق إفريقيا ، فهناك كتاب المسالك والممالك أو صورة الأرض لابن حوقل الذي وضعه في منتصف القرن التاسع الميلادي ، وعلى الرغم من أنه أورد بعض المعلومات التفصيلية عن القسم الشمالي من شرق إفريقيا خاصة مناطق الحبشة والنوبة إلا أنه لم يتعرض للقسم الجنوبي إلا بإشارات ضئيلة ، فقد ذكر أنه من المستحيل السفر إلى بلاد الزنج لحرارتها الشديدة واكتنا مع ذلك نلاحظ شيئاً هاماً وهو إشارته إلى بعض الشعوب البيضاء التي تتاجر معهم ولكنه اكتفى عند حد الإشارة إلى ذلك وهذا مما يستوجب الأسف أيضاً .

وبعد كتاب ابن حوقل لم يقدم لنا المقدسي (٩٤٦/٩٤٧م) في كتابه أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم شيئاً يمكن أن نضيفه إلى معلوماتنا عن شرق إفريقيا في خلال هذه الفترة ، فالمقدسي لم يذكر أكثر من أن الجزء الغربي من المحيط الهندي يبدأ بعدن وينتهي ببلاد الزنج وهم غير الزنوج الذين عرفناهم في الهند^(٢) .

وفي القرن الحادي عشر وقبل أن نصل إلى الإدريسي ، وهو مصدر هام عن شرق إفريقيا ، لانجد سوى الخوارزمي البيروني (١٠٣٠ هـ) (٤٤٠ هـ) في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية الذي ذكر أن ساحل القارة الشرقي

(١) كراتشكوفسكى — الأدب الجغرافي عند العرب القسم الأول ص ١٧٨

(٢) Cf. Ferrand, Documents Historiques et geographiques relatifs al'indochine, Relation de voyages et Textes geographiques Arabes, Persans e' Turks relatif a l'Exterme Orient de VIIIe au XVIIIe Siecles Tome I p. 117 Paris 1913.

والجزر الجنوبية منها تسكنها قبائل متفرقة من الزنج وأشار البيروني إلى جزيرة واق الواق وقد اعتبرها إحدى جزر القمر ، وذكر أن سكانها سود يغلب عليهم البياض ولكنهم يعتنقون عقيدة الهنود^(١) ، كما تحدث البيروني عن شئون التجارة التي كانت قائمة بين سفالية الهند والصين ولكنه لم يعطينا معلومات مفصلة عن دور العرب في تلك التجارة وإن كان قد أشار إلى الجزء الغربي من المحيط الهندي الذي أطلق عليه بحر البربر ويمتد من عدن إلى سفالية الزنج لا يتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيها^(٢)، وفيما يبدو أنه قد توفرت للعرب قرب ذلك العصر معلومات عن ساحل إفريقية الشرقي إلى خط عرض ٢٠° جنوباً أما عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من ذلك فقد كانت فكرتهم بصفة عامة تستند على الظن والتخمين ولو أن علمهم بالكوارث^(٣) التي كانت تتعرض لها السفن تشير إلى معرفتهم بطريق غير مباشرة بمضيق موزنبيق (جبل الندامة) ، وهناك كتاب وضعه أحد الفرس ويدعى برزج بن شهریار في منتصف القرن الحادي عشر باللغة العربية ويتضمن رحلته إلى بلاد الزنج وفيما يبدو أنه كان يقصد ببلاد الزنج بلاد الهند وليس زنج شرق إفريقيا لما يتضح من تسميته الكتاب بعجائب الهند، وتتضح لنا تلك الحقيقة في أن بعض المصادر العربية كانت تطلق على الهنود اسم الزنوج ولذلك لا يمكن أن نعتبر هذا الكتاب من المصادر التي تعيننا في هذه الدراسة على الرغم من أنه أورد بعض المعلومات البسيطة عن جزيرة واق الواق وسفالية^(٤) .

وتصمت المصنفات العربية حتى ينقطع هذا الصمت فجأة على أيدي جغرافي عربي أقام في صقلية في الفترة من ١١٠٠ إلى ١١٦٦ في بلاط الملك روجر الثاني Roger أحد ملوك النورمان وقد عرف الكتاب الذي وضعه بكتاب روجر وأسماء نزهة المشتاق في اختراق الآفاق^(٥) . ويتضح من كتاباته

(١) انظر البيروني نقلًا عن :

Gabriel Ferrand, op. cit., Tome I p. 163.

(٢) كراتشكوفسكى — القسم الأول ص ١٤١

(٣) المصدر السابق القسم الأول ص ٢٤٩

(٤) كتاب عجائب الهند لبرزج بن شهریار

Cf. Gabriel Ferrand, op. cit., Tome II p. 574.

(٥) انظر مادة الإدريسي في دائرة المعارف الإسلامية

عن شرق إفريقيا أن الإدريسي كان يأخذ مادته من الكتب الجغرافية السابقة عليه وكذلك من التقارير التي كان يتلقاها من المسافرين ومع ذلك فهو لا يوضح لنا مصادره المباشرة عن المعلومات التي أوردها عن شرق إفريقيا ، وعلى الرغم من أنه كان يعرف المسعودي وأخذ عنه بعض الجوانب ، إلا أنه لم يشر إلى ذلك إشارة صريحة .

وأهمية كتاب الإدريسي أنه أول المصادر التي تتحدث عن مدن الساحل وجزره من ذلك كلوة التي لها تجارة هامة مع سفالية ، ومالينده وهي مدينة كبيرة ، ومع ذلك فإن الإدريسي لم يورد لنا معلومات وافية عن هذه المدن ويبدو أنه لم يهتم اهتماماً كافياً بالاستعلام عن تلك البلاد .

وإلى جانب كتاب الإدريسي عن تخطيط البلدان فقد وضع لنا أول خريطة عربية كانت أدق وأشمل من الخريطة التي وضعها بطليموس وتعزز الخريطة كتابات كثيرة عن تعدين الذهب والحديد في سفالية وبعض مراكز في الداخل .

على أن الإدريسي لم يرحل إلى شرق إفريقيا كما فعل المسعودي ولكنه استمع أكثر وقرأ كثيراً فاتي بدقائق هامة عن هذا الإقليم . وقد انتهى الإدريسي من كتابه نزهة المشتاق في عام ١١٥٤ ولاشك أن الفترة التي كتب فيها الإدريسي هذا الكتاب كانت تجارة العرب متسعة في المنطقة اتساعاً كبيراً على أنه من الملاحظ أن الإدريسي لم يعن بتجارة العرب في الذهب والعاج والرقيق لأن هذه التجارة كانت معروفة في العالم العربي التجاري وإنما انصرف الإدريسي إلى الحديث عن تجارة جديدة هي تجارة الحديد، ويلاحظ أيضاً تغير أوجه الحياة من رحلة المسعودي إلى كتابات الإدريسي ما لينده التي لم تحظ من المسعودي حتى بذكر إسمها ، لأنها لم تكن تعنيه في شيء لعدم أهميتها ، أصبحت في زمن الإدريسي مدينة الزنج ، ويحدثنا الإدريسي عنها فيقول إن الزنوج فيها يمتلكون مناجم الحديد ويستخرجونه منها ويتاجرون في الحديد المطاوع منه ويربجون من تجارتهم هذه أرباحاً كثيرة . وكذلك يتحدث

عن منبسة التي يشتغل أهلها في تجارة الحديد أيضاً مما يدل على الصلات التي كانت قائمة بين شعوب الداخل ومن يفد على الساحل من التجار العرب وغيرهم خاصة من الهنود حيث كانت السيوف تصنع في بلاد الهند من حديد شرق إفريقيا .

ويلاحظ أن الأماكن التي ذكرها الإدريسي منها ما لا يزال موجوداً على الخرائط الحالية ولو بالتقريب كبراوة ومالينده ومنبسه ومنها ما اندرست معالمها ولا تزال تحت الكشف . وقد أكد لنا الإدريسي العلاقة بين العرب وساحل شرق إفريقيا ولكنه قصر هذه العلاقة عند حدود التعامل التجاري دون أن يعنى بدراسة المراكز التي أوجدها العرب على الساحل . ويقول الإدريسي بصدد ذلك أن جميع بلاد الزنج بضائعهم الحديد وجلود النمرور الزنجية وهي جلود حمر لينة جداً ينقلون أمتعتهم على رؤوسهم وعلى ظهورهم إلى مدينتي منبسة ومالينده فيبيعون هناك ويشتررون ، وليس للزنج مراكب يسافرون فيها وإنما تدخل إليها المراكب من عمان وغيرها إلى جزائر الزنج فيبيعون بها هناك ويشتررون متاع الزنج، وأهل جزائر الرانج (الهند) يسافرون إلى الزنج في زوارق ومراكب صغيرة فيجلبون منها أمتعتها لأنهم يفهم بعضهم كلام بعض (١) .

إن المعلومات التي أوردها الإدريسي غير وافيه فضلاً عن أنه أخطأ عند ذكره مدينة براوة فذكر أنها لا تزال على وثنيتهما إذ قال أنها واقعة بطرف بلاد الكفرة والمعروف أن براوة قد انتقل إليها الإسلام في زمن أسبق من كتابات الإدريسي وناحية أخرى أنه لم يشر إلى كلوة إلا بإشارة عابرة مع أنها تأسست قبل مائتي سنة من الإدريسي وبلغت في زمنه إلى أقصى درجة من ازدهارها وكانت جزر بمبا ومافيا وزنجبار تابعة لها ، وهذه الجزر أيضاً لم يذكرها الإدريسي كما أنه لم يعرض لمدينة مقديشو في حين أنه ذكر بعض المدن التي كانت تابعة لها كبراوه ومركة . ومن هنا يتبين لنا أن الإدريسي كان على علم

(١) دافيدسون - افريقية تحت أضواء جديدة (مترجم) ص ١٢ - ١٣

دراية بتلك الأماكن ويبدو أنه كما سبق أن أشرنا لم يهتم بالاستعلام عنها اهتماماً كافياً ومع ذلك فإن الإدريسي يكاد يكون هو الجغرافي الوحيد الذى ذكر أسماء مدن وجزر شرق إفريقيا في حين لم يذكرها غيره إلا باعتبار أنها مجموعة جزر^(١) .

وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادى صنف ياقوت الحموى كتابه المعروف معجم البلدان . وكان ياقوت رحالة وتاجراً ويعتبر هذا المصنف من أهم ما صنفه العرب في هذا الموضوع ويوجد بهذا المعجم بعض أسماء مدن شرق إفريقيا كمقديشو وجب وكلوة ولعل ياقوت أول من أشار إلى الشعب السواحلى ويفهم ذلك من حديثه عنهم إذ أسماهم البربر « وهم غير البربر الذين بالمغرب هؤلاء سود يشبهون الزنوج ، جنس متوسط بين الحبش والزنوج » ، وأشار ياقوت إلى مقديشو فذكر عنها أنها « مدينة في أول بلاد الزنج وأهلها كلهم غرباء ليسوا بسودان ولا ملك لهم وإنما يدير أمورهم المتقدمون على اصطلاح لهم وإذا قصدهم التاجر له أن ينزل على واحد منهم ويمنعجير به فيقوم بأمره ومنها يجلب الصندل والأبنوس والعاج . . . هذا أكثر أمتعتهم وقد يكون عندهم غير ذلك مجلوب إليهم » . كما تحدث ياقوت عن كل من مدينة الحب وكلوة وسفالية ، ولكن كل ما أورده عنها لم يكن إلا شذرات فقد ذكر عن الحب أنها مدينة قرب بلاد الزنج في أرض بريرة يجلب منها الزرافة وجلودها يتخذها أهل فارس نعلاً ، ولم يذكر عن كلوة إلا أنها موضع بأرض الزنج ، ولم يذكر عن الجهات الأخرى التى تقع على ساحل شرق إفريقيا أكثر مما أورده الإدريسي عنها . ومع ذلك فإن ما ذكره ياقوت مهم رغم قلته ؛ ويبدو أن هذه المعلومات قد استقاها من التجار العرب الذين كانوا يذهبون إلى هذه الأقاليم لصلتهم بهؤلاء التجار وبرؤساء عمان بوجه خاص ، كما أشار ياقوت إلى جزيرة مدغشقر وأطلق عليها جزيرة القمر^(٢)

Freeman — grenville, op. cit., p. 41. ١

(٢) لا يتفق الجغرافيون العرب على كتابة اسم هذه الجزيرة ولا على اصل اشتقاقها فقد كتبه البعض ومنهم الإدريسي القمر بضم القاف والميم =

يحدث عن اختلاف أجناسها وتعدد لغاتها وعن غنى سواحلها بالعنبر وأنه ليس هناك في بحر الزنج جزيرة أكبر منها^(١). وقد يكون من المناسب أن نشير هنا أن جزيرة مدغشقر وجزر القمر الأربعة كانت نادراً ما تذكر في المصنفات العربية، وحتى المصادر المحلية التي تناولت تاريخ مدغشقر غير وافية بوقد أورد لنا جيان بعض تواريخ عن مدغشقر وجزر القمر نقلاً عن كتاب عربي مخطوط ذكر أنه عثر عليه في مايوت إحدى جزر القمر وكذلك تحدث فراند^(٢) عن عدة مخطوطات عربية قديمة ذكر أنه عثر عليها في مدغشقر وأهداها إلى المكتبة الأهلية بباريس *Bibliothèque Nationale*؛ وفراند من أهم المختصين بالدراسات العربية الأفريقية والآسيوية وقد أمضى حياته في الخدمة الدبلوماسية بالمستعمرات العربية بالمحيط الهندي من مدغشقر إلى الهند الصينية وقد وضع مؤلفاً ضخماً جمع فيه المادة العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالجغرافية التاريخية للهند والشرق الأقصى بعنوان قصص الرحلات والجغرافية العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالشرق الأقصى من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر ترجمها وألف بينها وعلق عليها^(٣) ويستدل من هذه المخطوطات على أن العرب اختلطوا بإحدى القبائل في مدغشقر وتكون منهم شعب الأنتمرونا الذي يخضع من الوجهة الدينية والتنظيمية إلى قبيلة الانكارا وقد عرفت قبيلة الأنتميرونا الكتابة العربية بعد الإسلام بينما بقي شعب الهوفا أكبر شعوب مدغشقر لا يعرف الكتابة إلى فترة متأخرة وذكر فراند أن الأنتمرونا يحتفظون يكتب خطية عربية متناهية القدم يزعمون فيها انتسابهم

وكتبه غيرهم ومنهم ياقوت وابن سعيد بسكون الميم ونسبوا اسم الجزيرة إلى قوم القمر الذين هاجروا إليها أما ابن الوردى والبقوى فسموا الجزيرة باسم القمر بفتح القاف والميم - ويبدو أن العرب كانوا يقصدون بها جزيرة مدغشقر وإن كان هناك من يعتقد أنهم كانوا يعنون بها إحدى جزر القمر خاصة وأن وصف كل من الإدريسي وابن سعيد لجزائر القمر من حيث طبيعة الأرض وعادات السكان لا يتيسر تطبيقه على جزيرة مدغشقر. انظر جيان - وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق أفريقيا ص ١٦١ - ١٦٢

(١) راجع ياقوت الحموي، معجم البلدان، في التعرف على الأماكن التي أشرنا إليها.

(٢) Gabriel Ferrand, *Les Musulmanes de Madagascar et Piles de Comores* 2 Tome, Tome I

(٣) Cf. Ferrand, *Relation de Voyages et Textes Geographiques Arabes, Persans et Turk relatif a l'Extreme Orient.*

إلى مكة ولكن يجب أن تأخذ هذه الروايات بحذر فإن دعوى الانتساب إلى مكة والبيت النبوي تكاد تكون ظاهرة متفشية في تلك المناطق . وقد أسلمت قبيلة أنتيمرونا في زمن لانستطيع أن نجده تحديدًا صحيحًا وإن كان إسلام تلك القبيلة إسلامًا ضعيفًا إذ لم تلبث أن عادت إلى عقائدها من جديد فاختلط الإسلام بالوثنية . وربما يمكن أن نستفيد بالتاريخ الذي أورده المسعودي في تحديده فتح المسلمين لجزيرة قنبلو في عام ٧٥٠ م إذ ليس من المستبعد أن يكون الإسلام قد انتقل إلى مدغشقر بعد ذلك التاريخ مباشرة .

وقد ذكر فراند استناداً على المخطوطات التي عثر عليها أن الصراع كان حادثاً بين الكهنة الذين يعبدون إلها واحداً والعامة الذين تتعدد آلهتهم وكان يحىء العرب بالتوحيد معناه انتصار لحزب الكهنة ، ولكن كما سبق أن ذكرنا أن الإسلام في مدغشقر لم يكن قوياً ويوجع ذلك بالدرجة الأولى إلى شدة احتفاظ أهالي مدغشقر بتقاليدهم ومعتقداتهم وملاحظ أن المشرين الأوربيين اصطدموا هم أيضاً بهذه التقاليد (١) .

وجاء من بعد ياقوت الحموي ابن سعيد (٢) ١٢١٤—١٢٨٦ م وهو مؤلف جغرافي من غرناطة درس جغرافية بطليموس وصنف كتابه حول منتصف القرن الثالث عشر حيث وضع موسوعته التي أسماها جغرافية الأقاليم السبعة أورد فيها سواحل شرق إفريقيا مع ذكر لبعض مدنها كما ليندة ومنبسه وركز على مقديشيو بصفة خاصة ، وقد تحدث عن هذه المدن مراعيًا ترتيبها بحسب موقعها من الشمال إلى الجنوب (٣) . وقد وضع كتابه هذا على نهج الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق . وأهم ما في كتاب ابن سعيد ما ذكره من أن ملاحاً عربياً يدعى ابن فاطمة دار حول إفريقيا من الغرب إلى الشرق ووصف سواحل السنغال والقمرو وذكر عن وجود جاليات هندية تعيش في جزيرة القمر

(١) ارجع الى لوثرروب ستودارد — حاضر العالم الاسلامي وتعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتابات جبريل فراند ج ١ ص ٣٦٩ وما بعدها .

(٢) انظر ابن سعيد في المجلد الثاني من فراند ص ٣١٦ وما بعدها .

(٣) جيان — وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية

يوأورد ابن سعيد تفاصيل عن هذه الجزيرة تطابق جزيرة مدغشقر مثل كونها عريضة طويلة طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة عشرين يوماً وأنها تحت حكم المسلمين^(١)، وعلى الرغم من أن الفاصل الزمني بين كتابات الإدريسي وابن سعيد لا يتجاوز مائة عام فإن التناقض واضح بينهما إذ نلاحظ ببعض تغييرات من حيث أسماء المدن ولا نستطيع أن ننسب هذا الخلاف إلى التغيير الذي حدث للساحل في مدة قصيرة كهذه ومع ذلك ففي كتابات ابن سعيد مواقع كثيرة ورد ذكرها في الإدريسي .

وبعد وفاة ابن سعيد يظهر أمامنا مصنف جديد في تخطيط البلدان الزكريا بن محمد المعروف بالقزويني ويتضمن هذا المصنف بعض البيانات عن الشاطئ الشرقي لأفريقيا غير أنه يتميز باتجاهه إلى العجائب ويتضح من اسمه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ١٣٢٥ . كما له كتاباً آخر بعنوان آثار البلاد وأخبار العباد ، وقد اقتصر فيه على ما نقله من المسعودي بالنسبة لحديثه عن زنجوج شرق إفريقية^(٢) .

ثم يظهر لنا بعد ذلك كتاب « تقويم البلدان » لأبي الفدا إسماعيل سلطان حماة الذي يعد من أبرز المصنفين العرب في القرن الرابع عشر^(٣) ، ولكنه تقتصر فيما أورده لنا من معلومات على النقل عن ابن سعيد وأوضح ما ذكره أبو الفدا حديثه عن الثلوج على قمة كلمنجارو وقال إنه سمع بهذا ولا يكاد يصدق، وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن العرب عرفوا مناطق في أفريقيا لم يصل إليها الأوروبيون إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولم يقتصر أبو الفدا في حديثه عن زنجوج شرق إفريقيا بل ذكر أخباراً عن الزنجوج الذين كانوا في البلاد العربية فقد ذكر أنه في عام ٢٥٦ هـ أغارت عصابة من زنجوج زنجبار على الجزء الجنوبي من العراق وأنهم استولوا على مدينة البصرة ونهبوها كما أكد

(١) لوثرروب ستودارد — حاضر العالم الاسلامي — تعليق شكيب
أرسلان ص ٣٧١ — ٣٧٢

(٢) زكريا القزويني — آثار البلاد وأخبار العباد بيروت ١٩٦٠

(٣) انظر مادة أبو الفدا في دائرة المعارف الاسلامية .

التويرى. أن جزءاً من جيش الخلفاء العباسيين. ببغداد كان مؤلفاً في القرن التاسع من الميلاد من زنجبار (١).

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر انصرف العرب عن الجغرافية ووجهوا اهتمامهم إلى الحديث عن العجائب وفي وصف الغريب من حيوان البر والبحر وظواهره. ومن أهم الذين كتبوا عن العجائب شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي في كتابه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» وقد نقل الدمشقي بعض رواياته عن المسعودي، وفي فصل له عن بحر الزنج ذكر الدمشقي جزائر عديدة منها جزيرة قنبلو ولكنه غنى بها جزيرة مدغشقر (٢) ثم يأتي بعد الدمشقي عبد الرشيد بن صالح الملقب بالبقوى نسبة إلى باكو من ثغور بحر قزوين وله كتاب عجائب القدرة تحدث فيه فيما ذكره عن شرق إفريقيا عن جزيرة زنجبار ولكنه أسماها بنجويه، ذكر عنها أنها جزيرة كبيرة من بلاد الزنج وجميع السفن التي تتاجر مع هذه البلاد ترسو إليها وبذلك يمكن أن نعتبر جزيرة زنجبار من عداد الأمكنة التي ذكرها المصنفون العرب في مصنفاتهم الجغرافية.

وفي منتصف القرن الثاني عشر يبرز أمامنا سراج الدين أبي حفص عمر ابن الوردى في كتاب له بعنوان «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» وقد نقل هو الآخر عن المسعودي وذكر ابن الوردى أنه كلف من نائب السلطنة قائد قلعة حلب شاهين المؤيد (٣) أن يضع له دائرة مشتملة على دائرة الأرض توضح ما اشتملت عليه فوضع هذا الكتاب (٤). وقد وصف ابن الوردى ساحل شرق إفريقيا من جردفون إلى موزنبيق وذكر أن سكانه جميعهم من المسلمين فيهم القاضي والإمام ونقل ما أورده المسعودي

(١) انظر ما كتبه أبو الفدا عن تاريخ البصرة في :

Reinard, op. cit., Tome II pp. 44.

وكذلك جيان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا

ص ٧٣

(٢) لوثرروب ستودارد - حاضر العالم الاسلامي ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٣

(٣) كراتشكوفسكى - المصدر السابق القسم الثاني ص ٥٠٠

(٤) راجع ابن الوردى - فريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٤٨ و ٨٠

عن بلاد واق الواق وعجب لكثرة ما بها من ذهب حتى أن الزنوج يتخذون سلاسل كلابهم ودوابهم منه ، وأما أكابرهم فيصنعون لبنا من الذهب ينون بها بيوتهم . وفي الواقع أنه يوجد اختلاط عن سمي آخر لابن الوردى ظهر في منتصف القرن الرابع عشر ١٣٤٦ - ١٤٥٧ ويدعى زين الدين أبي حفص بن الوردى^(١) وقد ظل كتاب الخريدة ينسب خطأ إليه لما كان يشتهر به في الأدب والفقه واللغة^(٢) .

على أن أهم أثر في القرن الرابع عشر هو كتاب رحالة عربي يدعى «ابن بطوطة سجل فيه رحلاته وأسماء» تحفه النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وقد بدأ ابن بطوطة رحلاته في عام ٧٢٥ هـ قاصداً الحج ويقال إن أوراقه التي سجل فيها رحلاته قد فقدت منه فأملأها من الذاكرة ، وقد صاغ رحلات ابن بطوطة محمد بن جزى الغرناطي بأمر من السلطان أبي عنان أحدملوك بني مرين بالمغرب^(٣) ، والظروف التي تم فيها تدوين رحلات ابن بطوطة تجعلنا إذا ما قسونا في حكمنا على ابن بطوطة من خيال أو عدم دقة فيما كان يرويه ، أن كثيراً من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزى وأغلب الظن أن ابن بطوطة لم يدون مذكرات منتظمة وإن كان قد دون شيئاً فلا ريب في أنه قد أضاعه خلال تجواله^(٤) . وابن بطوطة ارتحل إلى مناطق كثيرة في إفريقيا وتعيننا في هذا المجال رحلته إلى شرق إفريقيا والتي سافر فيها من زيلع إلى مقديشو ، منبسة ، كلوة ، والثابت أنه قام بهذه الرحلة في عام ١٣٣١ ولعله يكون أول المصنفين العرب الذي يحدثنا بإفاضة عن الإمارات الإسلامية الهامة في شرق إفريقيا الشمالية منها والجنوبية ، وقد يكون هو الوحيد الذي يقدم لنا معلومات متصلة يمكن الاعتماد عليها عن تاريخ الساحل .

(١) راجع فراند Ferrand في نسبته الكتاب الى زين الدين بن الوردى وكراتشكوفسكى في نسبته الكتاب الى سراج الدين بن الوردى .

(٢) Cf. Ferrand, op. cit., Tome II p. 408.

(٣) كراتشكوفسكى - المصدر السابق - القسم الأول ص ٤٢٦ - ٤٢٧

(٤) راجع مادة ابن بطوطة - دائرة المعارف الإسلامية .

ورحلات ابن بطوطة على الرغم من عدم دقتها إلا أنه لاغنى عنها بالنظر لاحتوائها على بيانات وافية منها ما يمكن الاعتماد عليه . وقد أورد ابن بطوطة بتفصيل ثلاث مرا كز على الساحل الشرقي هي مقديشيو ، كلوة ، منبسة . ذكر عن مقديشيو أن المسافة بينها وبين زيلع خمسة عشر يوماً وهي مدينة متناهية في الكبر أفاض في الحديث عن نشاطها الاقتصادي ، وأكد اتصالها تجارياً بمصر إذ تصنع فيها الثياب الرفيعة المنسوبة إليها والتي لانظير لها ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها ، وذكر أن القاضي الذي استضافه في داره أثناء إقامته إسمه ابن البرهان ذكر عنه أنه مصرى الأصل ، ويظهر من روايات ابن بطوطة مدى تحضر مقديشيو وأن سلطانها يعرف اللغة العربية وإن كان يتكلم اللغة المقديشية ، ويبدو أن مقديشيو عندما زارها ابن بطوطة كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من التطور ، ويبدو من وصفه لها أنه كان لها أنظمة وتقاليد خاصة بها يظهر ذلك فيما أورده من التقاليد المتبعة في جلوس السلطان وما يحيط به من وزراء وأمراء ووجوه أجناد كل حسب مرتبته وأن الأطباء والأفكار والأبواق كانت تضرب عند جلوس السلطان ، ثم يتحدث ابن بطوطة عن جلوس الفقهاء وذوى الرأى وكيفية نظرهم في شكاوى الناس وتطبيقهم للشريعة الإسلامية ، ثم يمضى في وصف الحياة الاقتصادية ومدى ما وصلت إليه هذه السلطنة من اتساع في النفوذ ونمو في التجارة .

كما ذكر ابن بطوطة منبسة ولكن يبدو أن المدة التي قضاها بها وهي ليلة واحدة لم تكن كافية بطبيعة الحال للتعرف عليها أو الإطنا ب في وصفها فلم يذكر عنها إلا أنها شافعية المذهب مساجدها من الخشب أما عن كلوة — وذكرها ابن بطوطة بكلوة بضم الكاف ، في حين ذكرها ياقوت بكسر الكاف والأرجح أن تكون تسمية ياقوت هي الأرجح إذ سميت كذلك لأن الجزيرة تشبه كلوة الإنسان^(١) ، فقد وصفها ابن بطوطة بأنها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها زنج وهي من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها مبنية من الخشب

وأهلها أهل جهاد لأنهم في ير واحد متصل مع كفار الزنوج ولكنه أشار إلى إسلام بعض الزنوج وأن هؤلاء يغلب عليهم الدين والصلاح وينتمون إلى المذهب الشافعي ، كما تحدث ابن بطوطة عن سلطان كلوة ويفهم من حديثه عنه أن السلطنة كانت متصلة ببعض البلدان الإسلامية كالعراق والحجاز ويظهر ذلك من حديثه عن السلطان أبو المظهر حسن وكان يكنى بأبي المواهب لكثرة مواهبه وكرمه وقد قال عنه أنه كان كثير الغزوات على أرض الزنوج الكفار يغير عليهم ويأخذ منهم الغنائم حيث يخرج خمسها ويصرفه في الأوجه المعينة في كتاب الله ويجعل نصيب ذوى القربى في خزانة على حده فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها .

وذكر ابن بطوطة عن امتداد نفوذ كلوة إلى منبسه إثر مصاهرة تمت بين البيتين الحاكمين في كل من كلوة ومنبسة ، وعلى الرغم من أن ابن بطوطة قد وصف لنا كلوة بطريقة لم يصفها أحد من قبله فإن ما يدعو للأسف أن ابن بطوطة لم يتوسع في الحديث عن علاقات سلطنة كلوة من الناحيتين السياسية والتجارية بغيرها من المناطق خاصة وأنها كانت في زمن ابن بطوطة أهم مركز إسلامي على الساحل الشرقي لأفريقيا ، وكانت حركة الاستيطان الإسلامي بالغة مبلغها الأقصى شدة واتساعاً . ولقد كان باستطاعة ابن بطوطة أن يوافينا ببينانات أكثر مما ذكره عنها ولكنه لم يذكر سوى القليل مع أنه أقام بالمدينة فترة كانت كافية للتعرف عليها^(١) .

والجدير بالذكر أن الزمن الذي وصل فيه ابن بطوطة إلى ساحل شرق إفريقيا وهو نهاية الثلث الأول من القرن الرابع عشر كانت معظم مناطق الساحل تنتمي إلى العرب حين جاءت موجة كبيرة من مهاجري العرب في القرن الثالث عشر الميلادي وقت اجتياح المغول دار الإسلام حتى القرات ولحق هؤلاء بنى جلدتهم على الساحل الشرقي لأفريقيا وجاءوا بدم جديد دافق ظهرت آثاره في عماراتهم الزاهرة وأسواقهم الفاتقة التي بهرت ابن بطوطة

(١) راجع ابن بطوطة - تحفة النظائر في عجائب الامصار ج ١ ذكر سلطان كلوة ومقديشو .

حين جاء الإقليم . واستطاعت هذه المجتمعات بعد أن تنوعت مصادر الثروات فيها أن تصل إلى درجة تقرب من الخيال من حيث الغنى والترف والرفاهية . ويظهر ذلك في وصف ابن بطوطة لمدين الساحل الشرقي لأفريقيا وهذا الرحالة كان على معرفة وثيقة بمستوى الحياة العربية في البلاد الواقعة في حوض البحر المتوسط في هذا العصر فعجب للثراء الكبير والحياة المترفة التي رآها ، فحديثه عن مدينة كلوة يوحى بأنها من أجمل بقاع العالم وأكثرها بهاءً وكذلك حديثه عن منبسه ومقديشيو يعطى فيه صوراً حية لمجتمعات متروقة غنية (١) .

وفي نهاية القرن الرابع عشر يبرز لدينا كتاب أبي المحاسن بعنوان المنهل الصافي والمستوفي بالوافي (١٣٨٣) وقد نقل عنه المقرئى ترجمة لأحد قضاة مدينة لامو التقى به في مكة (٨٣٩) ذكر عنها أنها بلدة من بلاد الزنج على مقربة من مقديشيو ، ويستنتج من قول المقرئى وأبي المحاسن أن مدينة لامو كانت موجودة سنة ١٣٨٣ ولايد أنها تكون قد تأسست في عهد أقدم من ذلك لأنه كان بها في سنة ١٣٨٣ سكان مسلمون وكان لهم قاضياً عالم بالشرع الإسلامى (٢) .

وبعد هذه الرواية التى ذكرناها عن المقرئى لا توجد لدينا مصنفات عربية عامة تعرضت لشرق إفريقيا ، وبذلك نكون قد استخرجنا كل ماتحتويه المصنفات العربية من وصف ساحل شرق إفريقيا في الفترة من القرن التاسع إلى نهاية القرن الخامس عشر وهى الفترة التى يمكن أن نسميها بالعهد الإسلامى لأنها الفترة التى كان المسلمون في خلالها على اتصال دون غيرهم بتلك المناطق التى كان لهم فيها النفوذ التام والسيادة على أطرافها والسيطرة على تجارتها .

وبوصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر تبدأ المصادر البرتغالية تتوالى علينا كما بدأت المصادر الأوربية عموماً تعرض لشرق إفريقيا .

(١) جيان - وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية في شرق افريقية

ص ١٩٥

(٢) حسن أحمد محمود - انتشار الاسلام والثقافة العربية في

افريقية .

وقد عاصر مقدم البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا ربان عربي يدعى شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى أو النجدى عاش في النصف الثاني من القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر وخلف تراثاً في فنون البحار والملاحة الفلكية يشتمل على ما يقرب من تسعة عشر مؤلفاً ضمنت في مخطوط كبير باللغة العربية أزيل ما علق به من تراب في أوائل القرن الحالى . والفضل في ذلك إلى المستشرق الفرنسى جبريل فراند الذى اكتشف هذا المخطوط في مكتبة المخطوطات بالمكتبة الأهلية في باريس ، وكانت المكتبة قد حصلت على هذا المخطوط من أستاذ جزائرى يدعى سليمان تولى التدريس في مدرسة اللغات الشرقية بباريس في عام ١٨٦٠ ، وظل المخطوط يكاد يكون مهملاً في أرشيف المكتبة تحت رقم ٢٢٩٢ باستثناء بعض الإشارات السريعة العابرة عنه إلى أن قام المستشرق فراند بالتحقق من قيمته العلمية ونشره بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٣ بعد أن عكف على دراسته ما يقرب من عشرة أعوام أو يزيد^(١) .

وتتخصر أهمية هذا المخطوط في أنه أقدم وثيقة عربية دونت عن الملاحة وفنون البحار في البحار الجنوبية بين الساحل الشرقى لأفريقيا في المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى وبحر الصين الغربى وأرخبيل الملايو وبلاد الصين ، وفي عام ١٩١٩ عثر في دمشق على نسخة أخرى من هذا المخطوط وقد نسخت بمكة في ١٥٩٢ تولى فران مطابقتها على النسخة الباريسية ، وأخيراً عثر المستشرق الروسى كراتشكوفسكى بالمتحف الآسيوى على ثلاثة أراجيز تتعلق أولاهـا بالإبحار عن طريق البحر الأحمر والثانية بالإبحار عن طريق المحيط الهندى والثالثة وصف الطريق من المحيط الهندى إلى إفريقيا الشرقية^(٢) . وقد نشرت هذه الأراجيز في عام ١٩٥٧ ، قام بنشرها معهد الإستشراق

(١) أنور عبد العظيم — أحمد بن ماجد ص ٦ انظر أيضاً مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) لقيت مؤلفات أحمد بن ماجد عناية خاصة من المستشرق المعروف سيلفستردى ساسى *Silvestro de Sacy* فى عام ١٨٩٥ وتوجد نسخة زكوغرافية فى دار الكتب المصرية نقلا عن المكتبة الأهلية بباريس لكل من مؤلفات أحمد بن ماجد وسليمان المهرى .

السوفيتي بمدينة ليننجراد بعد أن عكف فيودور شوموفسكي — أحد تلامذة كراتشكوفسكي — على دراستها والتعليق عليها وقد نشرها باسم ثلاث راهماتج المجهولة^(١)، كما عثر على مخطوطة لأحمد بن ماجد بالموصل لا تزال تحتاج إلى تحقيق^(٢). وعلى الرغم مما يكاد يتفق عليه على أن أحمد بن ماجد هو الذي أُرشد فاسكودي غاما في رحلته إلى الهند إلا أن المطلاع على مؤلفات أحمد بن ماجد لا يجد بها أية إشارة عن ذلك، وإذا كان ابن ماجد قد وضع بعض هذه المؤلفات قبل مقدم البرتغاليين فإن هناك مؤلفات أخرى كتبها بعد وصول البرتغاليين وبالتحديد بين عامي ١٥١١ و ١٥١٢ لم يتعرض فيها إلى ذلك الحادث.

أما المصادر البرتغالية المعاصرة والتي كتبها كل من كوز وباروس وكاستهنيديا فعلى الرغم من أنها أشارت إلى أن ملاحاً عربياً قاد سفينة فاسكودي غاما إلى الهند إلا أنها لا تذكر الاسم صراحة وإنما تردد أسماء غير واضحة لهذا الملاح مثل معليمو كاناكا أو كانا أو عربي من الكجرات صحب فاسكودي غاما في عام ١٤٩٨ في رحلته من مالندي إلى كاليقوت^(٣).

وقد أثبت فيران أن اسم معليمو ليس إلا تحريفاً سواحلياً للكلمة العربية معلم. وكذلك يرجعنا إلى مؤلفات سليمان المهري وهو ملاح عربي عاش بعد ابن ماجد بسبعين سنة لا نجد في كتاباته أية إشارة إلى هذا الحادث.

أما الذي أكد على حادثة إرشاد أحمد بن ماجد للبرتغاليين فهو جبريل فراند حينما وقع على مخطوط باللغة العربية لقطب الدين النهرواني يرجع تاريخه إلى عام ١٥٧٧ بعنوان البرق اليماني في الفتح العثماني الذي ذكر تحت باب انتقال الدولة باليمن من بني طاهر إلى الأمير حسين من الجراكسة أنه

(١) نشر هذا الكتاب في عام ١٩٥٧ عن معهد الاستشراق السوفيتي بـلينجراد وبه الثلاثة مرشداً الحرية نقلاً عن أصولها المحفوظة في مكتبة معهد الاستشراق. وقد نشرت هذه المرشداً بأصولها العربية وبترجمتها والتعليق عليها باللغة الروسية.

(٢) كراتشكوفسكي — القسم الثاني ص ٥٧٤

(٣) كراتشكوفسكي — مع المخطوطات العربية ص ١٨٠ - ١٨٣

وقع في أول القرن العاشر الهجرى من الحوادث القوادح النوادر دخول
الفرتقال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وأنهم كانوا
يتعرضون لأخطار إلى أن دلهم أحمد بن ماجد إلى الطريق وقد عقد زعيم
الفرنجة أواصر الصداقة بينه وبين هذا الملاح الذى كان يعب الخمر مع أمير
البحر البرتغالى فلما لعبت الخمر برأس الملاح أرشد أمير البحر إلى الطريق
قائلاً للبرتغاليين لا تقربوا الشاطئ عند هذا الجزء إلى الشاطئ الشرقى لإفريقية
إلى الشمال من مالندى بل أديروا الدفة رأساً صوب البحر المفتوح فتبلغا شاطئ
الهند وتكونوا في حمى من الأمواج ، فلما اتبعوا هذه الإرشادات نجا كثير
من السفن البرتغالية من الغرق .

وقد تكون أهمية كتابات قطب الدين أنه عاصر أحمد بن ماجد فضلاً
عن أن بعض المصادر البرتغالية قد أشارت إلى إرشاد بعض الأدلاء لفاسكودى
غاماً إلى الطريق ، وقد حدث ذلك بتكليف من ملك مالينده الذى حالف
البرتغاليين عند وصولهم إلى مالينده ضد منافسه شيخ منبسه ولكن المؤرخ البرتغالى
باروس نسب قصة الإرشاد إلى ملاح مسلم من أهل كجرات ، أما الحكومة
البرتغالية فإنها قد اعترفت أخيراً بفضل أحمد بن ماجد فأقامت له نصباً
تذكاريّاً في مدينة مالينده^(١) .

ولكن التشكك في أن يكون أحمد بن ماجد هو الذى أرشد البرتغاليين
إلى الهند يقوم على الإعتبارات الآتية :

(أولاً) أن ابن ماجد لم يشر إلى ذلك بل أنه أبدى عداء للبرتغاليين
في أشعاره وأراجيزه .

(ثانياً) أن سليمان المهرى الذى ظهر بعد ابن ماجد لم يشر هو الآخر
إلى هذه الحادثة ، أما سيدى على ريس في كتابه المحيط الذى كتبه باللغة التركية
ورجع فيه إلى أسفار ابن ماجد وسليمان المهرى فقد ذكر أن الربانة الأجانب
كانوا لا يعرفون كيف يبحرون في المحيط الهندى دون الإستعانة بربان يرشدهم
ولكنه لم يورد اسم هذا الربان . ويرى البعض أن ما ذكر عن ابن ماجد

أنه كان في حالة سكر أمر لا يرقى إلى المنطق إذ كيف يترك له فاسكودى غاما قيادة سفينته وهو في هذه الحالة فضلاً عما تبين من كتاباته وأراجيزه شدة ورعه وحجه إلى مكة ، وربما تعيننا مؤلفات أحمد بن ماجد في تاريخ شرق إفريقيا في ناحيتين :

(أولاهما) ما جاء بها من إشارات عن وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا .

(والثانية) ذكره لبعض المناطق والمدن والجزر الموجودة على ساحل شرق إفريقيا .

ومن أهم مؤلفات أحمد بن ماجد كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، وحاوية الاختصار في أصول علم البحار ، وقد ذكر في الفائدة العاشرة من كتاب الفوائد وصفاً لبعض الجزر الكبيرة المشهورة يعيننا منها وصفه لجزيرة القمر والتي ذكر عنها أنه يحكم عليها سلاطين الإسلام وبها أربعين خطبة ويقصد بذلك أربعين مسجداً .

ولم جانب هذه المؤلفات هنالك أراجيز لا تخرج في جملتها ، وكما سبق أن ذكرنا ، أن تكون مرشحات ملاحية لبيان طرق الملاحة . ويهنا من هذه الأراجيز الأرجوزة السفالية نسبة إلى سفالية في جنوب شرق إفريقيا وهي قصيدة طويلة تقع في أكثر من سبعمائة بيت ، وأهمية هذه الأرجوزة أنها تكاد تكون الأرجوزة الوحيدة التي يرد فيها ذكر البرتغاليين فبالإضافة إلى ما جاء بها من وصف للمجاري والقياسات من مليبار والسند إلى نواحي السواحل والزنج وأرض السفال وجزره ، نجد فيها بيانات عن وصول البرتغاليين إلى جزيرة مدغشقر بقوله :

وخشب الإفرنج قد جاءوها وملكوها بعد أن غازوها

ويعاصر الغزو البرتغالي لشرق إفريقيا مخطوطة عربية قديمة كتبت في ذلك الوقت ولكنها فقدت ولم تصل إلينا إلا مقتطفات منها كتبت في عام ١٨٧٧ وقدمها السيد برغش بن سعيد هدية إلى السير جون كيرك القنصل البريطاني في زنجبار وهذه المخطوطة تشتمل على ١٧ ورقة فقط مكتوبة بخط منسق

واضح وإن كان بها الكثير من الأخطاء اللغوية ، وقد أهدى كيرك بدوره هذه المخطوطة التي اعتبرت فريدة في نوعها إلى المتحف البريطاني حيث حملت رقم ٢٦٦٦ وتشتمل على حوادث من وصول فرس شيراز إلى ساحل شرق إفريقيا في القرن العاشر إلى الغزو البرتغالي لكلوة في أوائل القرن السادس عشر . وقد نسخت هذه المخطوطة نقلاً عن أوراق الشيخ محي الدين الزنجباري قاضي زنجبار ١٨٦٢ وربما يكون هو نفس القاضي الذي تقابل معه الرحالة بيرتون Burton والذي حدثنا عنه في كتابه عن زنجبار ، وقد ذكر كيرك في تدوينه معلومات عن هذه المخطوطة أنها مأخوذة من سنة الكلاوية أما المخطوطة نفسها فتحمل اسم السلوة في أخبار كلوة التي إذا صح ما ذكره كيرك ليست إلا جزءاً من سنة الكلاوية .

وعلى هذا الأساس فإن محي الدين الزنجباري لا يكون مؤلف المخطوطة وإنما مجمعها خاصة وأن المخطوطة كما ذكرنا مليئة بأخطاء لغوية لا تطابق ما ذهب إليه بيرتون من فصاحة الشيخ محي الدين وبلاغته في اللغة العربية إذا كان محي الدين هو واضع هذه المخطوطة فعلاً . وكتاب السلوة على ذلك ليس إلا تجميعاً حديثاً على حد ما ذكره السير آرثر سترونج Strong عند نشره لكتاب السلوة وتقديمه له نقلاً عن الملاحظات التي أبدتها جون كيرك .

وإذا كنا لم نعر على السجل القديم لسنة الكلاوية فإن جرنفيل فريمان Freeman ، وهو أحد المعنيين بدراسة تاريخ شرق إفريقيا الوسيط ، لا يزال يراوده الأمل في العثور على ذلك الكتاب ويؤكد أنه عند زيارته لساحل تنجانيقا أن هنالك كثير من المخطوطات العربية والسواحلية توجد في أيدي عرب زنجبار وبمبا وقد قام المكتب الثقافي بشرق إفريقيا في عام ١٩٥٥ بتنظيم معرض للمكتب الخطية ، وبالإضافة إلى ما عرض في هذا المعرض من عدد كبير من النسخ الخطية النادرة للقرآن فقد عرضت أيضاً الكثير من المخطوطات الخاصة بشرق إفريقيا ولكن لم تتوافر الظروف لتصوير هذه المخطوطات أو حتى تصنيفها (٢) .

Cf. Richard Burton, Zanzibar, City, Island and Coast 2 vols. London. (١)

Freeman — grenville, The Medieval History of Tanganyika Coast p. 47. (٢)

وقد أكد Ingrams هو الآخر في كتابه عن زنجبار وجود كثير من المخطوطات في حوزة الأهالي ولكنهم يجمعون عن تقديمها للباحثين ومن المؤكد أن تكشف هذه المخطوطات جوانب غامضة من تاريخ شرق إفريقيا عند تسليط أضواء البحث عليها^(١).

وعلى الرغم من أننا لا نعرف اسم مؤلف كتاب سنة الكلاوية فقد وردت في الجزء المأخوذ عن هذا الكتاب بعض إشارات عنه والتاريخ الذي وضعه فيه ، ففي الفصل الرابع من السلوة نجد ما يشير إلى أن المؤلف ولد في ٢ شوال سنة ٩٠٤ هـ أي في ١٣ مايو سنة ١٤٩٩ وأنه عاصر عهد السلطان فاضل والأمير إبراهيم ، ولكن الشيخ محي الدين الزنجباري قد أهمل عند نسخه الكتاب إسم المؤلف ولا ندرى إذا كان ذلك عن إغفال منه أو عدم معرفته إسم المؤلف .

وطبقاً للتاريخ الذي ذكر في كتاب السلوة يكون المؤرخ قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره عند حصار البرتغاليين لقلعة كلوة في عام ١٥١٢ ومن المعتقد أن يكون مؤلف سنة الكلاوية من الأسرة الحاكمة في كلوة فقد تحدث عن بعثة شكلت لمفاوضة البرتغاليين ضمنها إثنين من أقاربه .

وكتاب السلوة يتألف من مقدمة وعشرة فصول وقد نشر السير آرثر سترونج هذا الكتاب في عام ١٨٩٥ بعنوان تاريخ كلوة :

History of Kilwa (٢)

بترجمته الإنجليزية وبأصله العربي الذي نسخه الشيخ عبد الله بن مصبح ، أحد العاملين في بلاط السيد برغش ، وقد ذكر في مقدمته للكتاب أنه وقعت يده على أوراق الشيخ محي الدين الزنجباري ووجد ضمنها هذا التاريخ فحرص قبل أن يعيدها للسلطان أن يكتب لنفسه نسخة من هذا التاريخ^(٣).

ومقدمة كتاب السلوة مقدمة فلسفية تتناول تعطش الإنسان إلى المعرفة وأسباب ذلك ، وإن الله يميز بين العلماء والجهلاء ، وذكر أنه سيعرض في الفصل الأول لتأسيس مدينة كلوة وعن أول من وفد إليها .

Cf. Ingrams, Arabia & The Isles. (١)

Cf. History of Kilwa, Journal of the Royal Asiatic Society, April 1895. (٢)

Zôe March, East Africa Through Contemporary Records p. 214. (٣)

والفصل الثاني سيتعرض فيه عن اضطرابات الأمور في كلوة وحكومة إحدى القبائل التي اجتاحت كلوة ، والفصل الثالث عهد أبو المواهب (وهو السلطان الذي زاره ابن بطوطة) ، والفصل الرابع عن الملك العادل ، والفصل الخامس عودة أسرة أبي المواهب ، والفصل السادس حكم الحسن بن وزير ، والسابع عهد السلطان فاضل بن سلطان ، والثامن عهد حاج محمد بن ركن الدين ، والتاسع عهد السلطان محمد مكدرات ، والعاشر عهد الملك سلطان بن سلطان .

وبتتبعنا لكتاب السلوة لانجد سوى المقدمة وسبعة فصول فقط ، بينما سقطت الفصول الثلاثة ، الثامن والتاسع والعاشر ، والمخطوطة على هذا الأساس تتناول عهد إمبراطورية الزنج في الفترة من وصول علي بن الحسن الشيرازي إلى كلوة سنة ٩٧٥ إلى سقوطها سنة ١٥١٢ وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى أن إمبراطورية الزنج التي نعنيها في هذا المجال هي غير مملكة الزنج الداخلية القديمة التي تحدث عنها المسعودي في القرن العاشر الميلادي وإنما نقصد بامبراطورية الزنج الساحلية التي كان مركزها كلوة التي احتلت مكاناً بارزاً بين إمارات الساحل الشرقي لأفريقيا فيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الميلادي .

وإذا كانت الفصول السابقة تتناول هذه الفترة فإن الفصول الثلاثة التي لم تذكر في المخطوطة يبدو أنها كانت تتناول تاريخ كلوة بعد سيطرة البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر والسنوات التالية . ومن المؤكد أن يكون مؤلف الكتاب قد تعمد إسقاط هذه الفصول فإن آخر عبارة وردت في الفصل السابع « ولم أجد بعد ذلك شيئاً » ، وقد ذكرت هذه العبارة بعد حديث المؤلف عن البعثة التي ذهبت لمفاوضة فاسكو دى غاما في ٨ جمادى الأولى سنة ١٤٩٤ ، ثم يذكر الناسخ أن هذه المخطوطة نسخت في ٢٠ مايو سنة ١٨٧٧ في عهد السيد برغش بن سعيد وكتبت بيد عبد الله بن مصبح الصوافي .

أما عن إسقاط مؤلف المخطوطة للفصول الثلاثة المذكورة فيرجع إلى سبب واضح إذ من المحتمل أن يكون المؤلف قد اقتصر في تأريخه لكلوة إلى السنوات الأولى من القرن السادس عشر لأن ما حدث بعد ذلك كان فيه الكثير

من الامتحان بالنسبة لكلوة بعد إحكام السيطرة البرتغالية على ساحل شرق إفريقيا .

والمهم أنه لا يزال لدينا أمل في العثور على سجل كلوة القديم وكذلك المخطوطة التي نقلها الشيخ محي الدين الزنجباري وبذلك يمكن إضافتهما إلى المخطوطة الثالثة وهي الوحيدة التي لدينا والمنسوبة إلى الشيخ عبد الله بن مصبح الصواني ،

وقد يكون من الجائز وقوع سجل كلوة في أيدي البرتغاليين خاصة وأن المؤرخ البرتغالي جواس دي باروس Jôas de Barros قد عثر على مجموعة ضخمة من المخطوطات نشر منها تاريخاً لكلوة بعنوان :

Choronica dos Reis de Quiloa

ولكن باروس لم يذكر لنا المصدر الذي أخذ منه الترجمة البرتغالية وقد كان من السهل علينا أن نقول إن باروس نقل عن سنة الكلاوية لولا بعض التناقضات الواضحة بين ما أورده باروس وبين النسخة التي سبق أن أشرنا إليها من تاريخ كلوة ، هذا مع التسليم بوجود تشابه في أوجه كثيرة بين النسخة البرتغالية وبين النسخة العربية .

وقد عني كل من جرنفيل فريمان وبرنز بمطابقة السلاوة في أخبار كلوة على تاريخ كلوة الذي نشره باروس^(١) ويميل فريمان إلى الاعتقاد أن أصل المصدرين واحد إلا أن باروس أضاف معلومات من مصادر أخرى وكذلك أغفل أشياء اعتبرها غير هامة . وبما يعزز وجهة رأى فريمان في أن مصدر النسختين مصدر واحد هو انتهاء باروس في تاريخه لكلوة في عام ١٥١٢ وهي نفس السنة التي انتهى فيها كتاب السلاوة في أخبار كلوة .

ويُرجع النص العربي لتاريخ كلوة ، ويخالطه بعض الأساطير ، تأسيس مدينة كلوة إلى هجرة سلطان شيراز مع أبنائه الستة إلى ساحل شرق إفريقيا

(١) انظر ذلك في كتاب جرنفيل فريمان التاريخ الوسيط لساحل تنجانيقا ص ٦٦ وما بعدها .

See also Prins A. H. The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast — Arab — Shiraz and Swahili, International African Institute, London 1961.

واستقرار السلطان بعد وصوله في كلوة وقد هاجر من شیراز إثر رؤية خيفة توقع بها انهيار مملكته فهاجر بأبنائه ووزرائه ، على أن المخطوطة تؤكد أنه كان بكلوة جماعة من المسلمين ، بل كان هنالك مسجد أيضاً ، مما يدل على أن المسلمين قد وصلوا إلى كلوة قبل القرن العاشر الميلادي وفي فترة زمنية أسبق من الفترة التي وصل فيها الفرس الشيرازيون .

ويروى صاحب تاريخ كلوة أن السلطان حسن اشترى كلوة من صاحبها الأفريقي بأقمشة كانت معه ، بينما استقر كل ابن من أبنائه الستة في منطقة من المناطق على الساحل ، ولما كان الحسن بن علي يخشى أن يعود صاحبها من جديد فقد صرف جهده لتحسينها ، ويروى صاحب كتاب السأوة أن هذه الحادثة وقعت في منتصف القرن الثالث الهجري (٩٧٥ م) ولا شك أن تحديد تأسيس الفرس لمدينة كلوة بهذا السبب الواهي لا يرقى إلى المنطق فالأرجح أن تكون هجرة الفرس إلى شرق إفريقيا قد حدثت بين عامي ١٠٥٥ و ١١٠٠ على إثر فرار الشيعة الشيرازيين من وجه طغرل بك السلجوقي الذي غزا شیراز سنة ١٠٥٥ وهذا الرأي الذي نقله هنا عن Hichens قد يكون أدعى إلى الإقناع مع الاعتراف بوجود فاصل زمني بين ما ذكره صاحب تاريخ كلوة وبين هذه الهجرة المشار إليها .

أما الفصول الممتدة من الفصل الثاني إلى الفصل السابع فتناول تاريخ من تعاقب على سلطنة كلوة من ملوك وسلاطين ، والمنازعات حول العرش وعن حج معظم حكامها إلى مكة .

ولكن يهمننا الفصل السابع بصفة خاصة لأن هذا الفصل يعرض في نهايته لأخبار وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا فيقول إنه جاءت الأخبار بأن رجالاً أتوا من بلاد الفرنج بصحبة ثلاث سفن وأن اسم قائدهم ميراثي (ولعله يقصد فاسكودي غاما) فتقدموا إلى مافيا فوجدوا ترحيباً من الأهالي ولكن لم يلبث أن عرف الأهالي أنهم أتوا للتجسس على المدينة بهدف الاستيلاء عليها فثاروا عليهم فتقدموا إلى ماليندي ومنها أخذوا مؤناً ومياهاً وطلبوا مرشداً إلى الهند ، وفي عام ٩٠٦ قدم بيساريوس (ولعله يقصد القائد البرتغالي

بلدرو الفاريز كبرال) وطلب من أهالي كلوة ماءً ووقوداً، وطلب أيضاً مقابلة السلطان أو ابنه فأوفد السلطان وفداً لمفاوضتهم «وقد رفض الوفد اعطائهم ماطلبوا فذهبوا لعنة الله عليهم إلى مالينده وأخذوا كل ماكانوا يحتاجونه ، ولكنهم عادوا إلى كلوة ولما أدرك أهل كلوة أنهم لا يستطيعون لهم دفعاً تقدم وفد لاستقبال الميراني وكان قد عاد من الهند وكان في هذا الوفد بعضاً من أقاربي » . ثم يقول صاحب التاريخ أنه « لم يجد بعد ذلك شيئاً » ويبدو أنه قد وقف عند مقدم البرتغاليين ، ويتضح ذلك من تسميته الكتاب «السلوة» أى أنه كتب تاريخاً للعزاء في تاريخ كلوة ولم يشأ بطبيعة الحال أن يكتب عمداً صارت إليه كلوة بعد السيطرة البرتغالية . وعلى الرغم من أن كتاب السلوة ليس النسخة الأصلية من تاريخ كلوة إلا أنه يعطينا تاريخاً متصلاً لسلطنة كلوة من القرن العاشر إلى أوائل القرن السادس عشر .

وكما سبق أن أشرنا في مقدمة هذه الدراسة أن الفترة التالية من وصول البرتغاليين تميزت بدخول إفريقيا إلى مجال الاحتكاكات بينها وبين أوروبا ، فقد ظهرت الكثير من الكتب البرتغالية والأوروبية بصفة عامة منذ نهاية القرن الخامس عشر . أما المصنفات العربية العامة التي أشارت لتاريخ شرق إفريقيا في عهد السيطرة البرتغالية فلا نجد منها سوى كتاب الشيخ تقي الدين الملباري بعنوان « تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين » وهذا الكتاب نشره دافيد لوبز David Lopes بعنوان :

Historia Portuguesa No Malabra

ولكن لانجد في ذلك الكتاب اهتماماً واضحاً بشرق إفريقيا إذ قصر المؤلف همه إلى التعرض لمتابعة مسلمي الهند للبرتغاليين بصفة خاصة^(١) وقد تميز الكتاب بحمية دينية بالغة ، الأمر الذي يؤكد أن الحرب البرتغالية في الشرق أثارت الروح الدينية التي عرفناها في العصور الوسطى .

والواقع أننا لانجد من المصادر العربية المعاصرة للفترة ما يستحق الذكر وفي تقديرى أن انشغال المسلمين بالتحول الجديد والحروب المستمرة بينهم

(١) زين الدين - تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين نشر

وبين البرتغاليين وما تبع السيطرة البرتغالية من تدهور وانحيار اقتصادى ثم غزلة وجمود فكرى ، فضلاً عما تعرضت له الكثير من المراكز الإسلامية في شرق إفريقيا من حروب وحرقت وتدمير ، كل هذه النواحي لم تساعد المؤرخين العرب على الكتابة عن تاريخ هذه الفترة التى ظلت مهملة بالنسبة للمصادر العربية .

وعلى الرغم من أنه لا توجد لدينا مصادر معاصرة للفترة البرتغالية فإن بعض التواريخ المحلية التى كتبت في فترة متقدمة تطالعنا ببعض التفاصيل عن ملايسات العصر البرتغالى في شرق إفريقيا ، وقد ذكر أوين Owen في كتابه عن رحلته في شرق إفريقيا أنه عثر على مخطوطة عربية مدونة في ٢٨ شعبان ١٢٩٣ (١٨٢٢) عند أحد سكان منبسه وقد عرفت هذه المخطوطة باسم تاريخ آل المزروعى في منبسه^(١) ، وقد عني جيان Guillaín بنقلها إلينا، وتناول هذه المخطوطة الفترة من وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا إلى العام الذى كتبت فيه ، وهى على هذا الأساس يمكن أن تمدنا بمادة مكمله لتاريخ كلوة ، خاصة وأن كلوة كانت السلطنة المسيطرة على مدن الساحل، ولذلك فإن تاريخ آل المزروعى يمدنا بمعلومات عن الاتصالات التى قامت بين كلوة وبين البرتغاليين^(٢) . ويذكر تاريخ آل المزروعى أن سلطان كلوة تسلم عدة رسائل من البرتغاليين بشأن المحالفة معه ولكنه تردد في عقد محالفة معهم فانصرف البرتغاليون إلى مالينده . ويستدل من تاريخ المزروعى أيضاً على مدى التمزق الشديد الذى كان يعاني منه الساحل الشرقى لأفريقيا فمالينده في صراع مع منبسه، وسفالية تابعة لكلوة ولكن شيخها يوسف ، وقد شجعت الاضطرابات الداخلية ، أعلن انفصاله عن صاحب كلوة وسمح للبرتغاليين في بناء قلعة في بلاده ، وهكذا وقفت إمارات ساحل شرق إفريقيا مواقف مختلفة بالنسبة لعلاقتها بالبرتغاليين .

Cf. Owen W. F. Narrative of Voyages to Explore the Shores of Africa, (١)
Arabia and Madagascar 2 Vols London 1833.

see vol I pp. 415-417.

Cf. Chronicles of Mombassa, Translated From the Arabic Text.

Guillaín, Documents sur l'Histoire, Géographie et Commerce de (٢)
l'Afrique Orientale Tome I Exposé critiques de diverses Notions acquises sur
l'Afrique Orientale pp. 614-622.

وفيه من تاريخ آل المزروعى في منبسة كيف عمق البرتغاليون الخلافات التى كانت قائمة بين مالينده ومنبسة ، وكيف تمكنوا من السيطرة على منبسة وذلك بمساعدتهم الأسرة المحالفة لهم في مالينده على الوصول إلى حكم منبسة ، وتذكر المخطوطة بصدد ذلك أن منبسة كانت تابعة لزنجبار ثم انفصلت عنها وتولى الحكم بها شاوو موفيتا (شاهو بن مشم) منذ انفصالها، ويبدو أن هذا الاسم لاسم فارسى سواحلى مما قد يستدل منه أنه كان أحد أقارب الأسرة الشيرازية التى تأسست في كلوة .

وتذكر المخطوطة العربية أن شاهو هذا كان آخر أمراء الأسرة الشيرازية التى حكمت مدينة منبسة منذ انفصالها عن زنجبار ، وأن حاكم مالينده هو الذى خلف شاهو على منبسة وكان يدعى الشيخ أحمد، وترتب على وصول الشيخ أحمد إلى الحكم في منبسة بمساعدة البرتغاليين له أن عقد معهم محالفة تمكنوا بواسطتها من إبقاء حامية عسكرية برتغالية في قلعة منبسة ولكن تضى المخطوطة العربية فتذكر أن السلطان أحمد صاحب منبسة الجديد كان له ولداً يدعى شنجوليا فلما مات السلطان أحمد انتخبه الأهالى بالولاية عليهم في يوم السبت ٧ محرم ١٠٤٠ هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٦٣١ ، ولم يرد في التاريخ شىء عن المدة الواقعة بين تاريخ وفاة أبيه في ١٦٢٧ وبين جلوسه هو على الحكم في عام ١٦٣١ . والأرجح كما تقرر المصادر البرتغالية المعاصرة أن البرتغاليين بعثوا به إلى جوا وكان يباغ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره عند وفاة أبيه وهناك عهدوا بتربيته إلى طائفة سانت أو غسطين ويقال إنه تنصر وتسمى باسم دون جيرونيمو . ولما عاد إلى منبسة وتسلم الحكم في عام ١٦٣١ سار بين الناس بالخور إذ كان يكرههم على أكل لحم الخنزير ، وكان على الحملة رجل سوء وشر ، وعلى الرغم من تحامل المخطوطة العربية عليه فإنها تسجل كفاحه في مقاتلة البرتغاليين الأمر الذى يفهم منه أنه كان يتصرف تلك التصرفات بهدف خديعة البرتغاليين إذ مالبت منبسة بقيادة شنجوليا أن عادت مرة ثانية لترغم حركة النضال ضد البرتغاليين، وعندما علم بأسطول برتغالى يتقدم إلى منبسة أسرع بتخريب المدينة وهاجر هو وقومه إلى اليمن ، وهياً المسرح لظهور

عمان لتزعم مدن شرق إفريقيا في محاولات مستمرة للقضاء على السيطرة البرتغالية وإقصاء البرتغاليين من منطقة الشرق الأفريقي ، وللأسف أن تاريخ آل المزروعى لا يذكر لنا مراحل تدخل عرب عمان في الصراع بينهم وبين البرتغاليين ونجداتهم المستمرة لأهالى شرق إفريقيا وإن كان تاريخ المزروعى مع ذلك يسجل سقوط حصن المسيح الذى بناه البرتغاليون في منبسة على أبدى الإمام سلطان بن سيف في ٩ جمادى الثاني ١١١٠ هـ الموافق ١٤ ديسمبر ١٦٩٨ ، وأن الإمام سلطان بن سيف العربى استطاع بعد إسقاطه لمعقل البرتغاليين الحصين في منبسة أن يسيطر على مدن ساحل شرق إفريقيا ، زنجبار وكلوة وبات ومالينده بل وصل إلى موزنبيق ولم يشنه عنها سوى انفجار لغم كان البرتغاليون قد وضعوه هناك ، وأنه أعمل الذبح والتقتيل في فلول الحاميات البرتغالية التى كانت مسيطرة على مدن الساحل الشرقى وجزره .

ويتعرض تاريخ المزروعى إلى وصول أسرة المعمورى إلى حكم منبسة نيابة عن السلطان العماني العربى وقد بقيت هذه الأسرة حتى عام ١٧٣٩ حينما استطاع محمد بن عثمان المزروعى الذى تنسب إليه أسرة المزروعى ، وهى تنسب إلى قبيلة عربية تسكن على الساحل الغربى للخليج العربى ، من انتراع ولاية منبسة من آل المعمورى ولم تلبث أن وافته الفرصة لكى يعلن استقلاله عن عمان ويؤسس حكماً مستقلاً في منبسة حينما سقطت أسرة اليعاربة في عمان وأعلن المزروعى عدم اعترافه بمؤسس الأسرة الجديدة التى حلت محل أسرة اليعاربة ، وهى أسرة البوسعيد ، وظل خلفاء محمد بن عثمان المزروعى يتعاقبون على حكم منبسة وتوابعها إلى أن أسقط السيد سعيد بن سلطان هذه الأسرة في عام ١٨٣٩ وكان سقوط هذه الأسرة من أهم العوامل التى مهدت للسيد سعيد بن سلطان أن يقوى من دعائم سلطته في شرق إفريقيا على أن تاريخ أسرة المزروعى يقف عند عام ١٨٢٢ ، وإذن فنستطيع أن نعتمد على المصادر العمانية في تناولنا للأحداث التالية نظراً للصلات الوثيقة التى قامت بين عمان وشرق إفريقيا وخاصة على عهد السيد سعيد بن سلطان غير أن ما يؤخذ على هذه المصادر أنها أولت اهتمامها بعمان والجزيرة العربية ولم تشر إلى الشرق الأفريقى سوى إشارات طفيفة ، ويعزو ذلك في تقديرنا

أنه على الرغم من أن عاصمة الدولة انتقلت من مسقط إلى زنجبار في عام ١٨٣٢ إلا أن العمانيين استمروا مع ذلك يعتقدون أن المناطق الأفريقية مناطق ملحقة وليست الأساس الذي تقوم عليه الدولة ، وعلى الرغم من هجرة كثيرين من العرب ذوى الثقل الاجتماعى والمادى إلى شرق إفريقيا فقد استمر مع ذلك لإقليم عمان مكانته الروحية فضلاً عن أنه كان المستودع الطبيعى للعناصر العربية التى تمد القسم الأفريقى من السلطنة بما تحتاجه من مقومات ودماء عربية .

ولدينا من هذه الكتب العمانية كتاباً هاماً هو الفتح المبين المبرهن في سيرة السادة البوسعيديين تأليف حميد بن محمد رزيق بن بجيت وهذا الكتاب يعد من أهم مؤلفات هذا المؤرخ العماني إذ لديه بعض مخطوطات أخرى أقل أهمية محفوظة بمكتبة جامعة كبردج .

وقد قام الدكتور بادجر Badger وهو أحد الباحثين الثقات في تاريخ عمان بنشر هذا الكتاب ولكنه لم ينشر النص العربى وإنما اكتفى بترجمة هذا النص إلى اللغة الإنجليزية ولما كان النص العربى ينتهى في عام ١٨٥٦ وهى سنة وفاة السيد سعيد بن سلطان فقد أضاف بادجر إلى تاريخ بن رزيق تحليلاً تاريخياً للأحداث التى وقعت حتى عام ١٨٧٠ . وقد ذكر بادجر أن النسخة العربية قدمت له هدية من السلطان برغش بن سعيد أثناء زيارته إلى زنجبار حينما كان يقوم بمهمة التوفيق في النزاع الذى كان قائماً بين مسقط وزنجبار وقد نشر بادجر كتاب بن رزيق في عام ١٨٧١ بعنوان :

History of the Imams and Seyyids of Omam

By Salil Bin Razik

ولكن يلاحظ أن بادجر أخطأ خطأين أولهما أن إسم المؤلف ليس سليلاً كما ذكر بادجر إذ أن ابن رزيق ذكر أسمه أكثر من مرة في الكتاب وهو حميد بن محمد ، ولكن المؤلف ذكر أنه « سليل » بن رزيق فاعتقد بادجر أن سليلاً هو إسم علم .

والخطأ الثانى كتابة بادجر اسم المؤلف ابن رازق وصحته بن رزيق .

وقد ذكر حميد بن رزيق أنه انتهى من وضع هذا الكتاب في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٢٧٤ هـ الموافق (١٢ ديسمبر سنة ١٨٥٧) وقسمه إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة كتب أسماها :

القسم الأول أو الكتاب الأول يعرض لتاريخ عمان من سنة ٤١ هـ أو ٦٦١ م إلى اعتلاء الإمام أحمد بن سعيد الحكم في عام ١٧٤١ ، والكتاب الثاني من أحمد بن سعيد إلى حفيده سعيد بن الإمام ، ثم يخصص الكتاب الثالث لحياة وأعمال السيد سعيد بن سلطان وينتهي به إلى وفاته في عام ١٨٥٦ وقد أسمى القسم الأخير بالبدر الكامل .

ولاشك أن ابن رزيق يعد من الكتاب الموالين لأسرة البوسعيد بل ويعترف المؤلف في أكثر من موضع في هذا الكتاب أن هذه الأسرة كان لها فضل كبير عليه ، وأن الإمام أحمد بن سعيد قد عين جده في إحدى الوظائف الرئيسية في الدولة .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لا يوجه عناية كافية للشرق الأفريقي ويركز اهتمامه بعمان حتى بعد انتقال مركز الحكم إلى زنجبار فإن أهمية الكتاب بالنسبة لتاريخ شرق إفريقيا تنحصر في ناحيتين : الأولى أنه يكاد يكون المصدر العربي الوحيد بين أيدينا الذي يتعرض لأصول العلاقات السياسية بين عمان وشرق إفريقيا ويتحدث بصدد ذلك عن ثورة العمانيين على الدولة الأموية وأنه كان من نتيجة فشل هذه الثورة التي تزعمها الجلنديون ، وهي الأسرة التي كانت تحكم في عمان ، أن فر هؤلاء إلى بلاد الزنج في عام ٦٨٤ م ، ثم وفدت إليهم موجات أخرى من العرب حيث بدأ اختلاطهم وتواجههم مع أهالي شرق إفريقيا ، والواقع أن معلوماتنا عن تأسيس الإمارات الإسلامية الفارسية أو العربية في شرق إفريقيا لاتزال كما سبق أن ألمحنا معلومات قاصرة ، وخاصة أن المصادر العربية العامة قد تجاهلت هذه الفترة ومن ثم فإن اعتمادنا يركز على المصادر السواحلية فيما يخص نشأة هذه الإمارات وتطوراتها وإن كانت هذه المصادر المحلية السواحلية تحتاج إلى حذر بالغ عند الاعتماد عليها كمادة تاريخية بالنظر لما علق بها من أساطير أو خيال .

والأهمية الثانية لكتاب ابن رزيق أنه متمم لتاريخ آل المزروعى في منبسة خاصة حينما يعرض لصراع السيد سعيد ضد المزروعين^(١) ، وتمكنه في نهاية الأمر من إسقاط الأسرة المزروعية في عام ١٨٣٩ ، واتجاهه بعد ذلك إلى السيطرة على مدن شرق إفريقيا ، ومع ذلك لا يكاد المؤلف ينصرف إلى الأحداث في شرق إفريقيا حتى تشده الأحداث التي تجرى في عمان وعن تردد السيد سعيد بين آونة وأخرى من عاصمته الجديدة زنجبار ومجيئه المتكرر عمان لكي يعالج المشكلات الداخلية والخارجية التي تتعرض لها فهو ينهى كتابه بحرب السيد سعيد مع فارس ورجوعه بعد عقد الصلح إلى زنجبار ١٨٥٦ ووفاته على ظهر السفينة التي حملته إلى عاصمته الجديدة زنجبار^(٢) .

ويمكن بشئ من التجاوز أن نضيف مصدرين هامين للمصادر التي تناولت تاريخ شرق إفريقيا ، وأحد هذين المصدرين وضعته ابنة السيد سعيد السيدة سلمى والآخر كتبه حفيد السيد سعيد .

والمصدر الأول يتضمن ذكريات السيدة سلمى في قصر الموتى بزنجبار وقد تزوجت من أحد الضباط الألمان ويدعى رويت Ruete وانتقلت معه إلى بلاده وتسمت باسم إميلي Emily ووضعت هذا الكتاب باللغة الألمانية بعنوان مذكرات أميرة عربية وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغتين الانجليزية والفرنسية وقد تناولت في هذا الكتاب جوانب شيقة من نظم القصر والبلاط وحياتها في بيت المتوفى في حياة أبيها السيد سعيد ، ثم تعرضت إلى النزاع الذي حدث بين أخويها ثويني وماجد حول ميراث أبيهما السيد سعيد ، وحول تقسيم ملك أبيها فيما بينهما^(٣) . وقد وفدت السيدة سلمى إلى زنجبار في عهد أخيها السيد برغش بن سعيد لتطالب بنصيبها من تركة أبيها ويبدو أن الحكومة الألمانية هي التي دفعتها إلى ذلك حتى تجد من ورائها وسيلة للضغط على السيد برغش باعتبارها قد أصبحت رعية ألمانية .

Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman by Salih Bin Razik (١)
pp. 348-349.

Bin Razik, op. cit., p. 355. (٢)

Cf. Emiby Ruete, Memoire d'une Princesse Arabe Paris. (٣)

أما المصدر الآخر فقد تناول ترجمة للسيد سعيد بن سلطان وضعها ابن السيدة سلمى وحفيد السيد سعيد رودلف رويت وقد نشر هذا الكتاب باللغة الانجليزية في عام ١٩٢٩ بعنوان

**Said Bin Sultan
Ruler of Oman and East
Africa (1791 — 1856)**

وقد اهتم فيه رودلف بإبراز شخصية السيد سعيد في المجال الدولي وعلاقاته الخارجية وأهم مميزات شخصيته كما تناول إلى جانب ذلك دراسة لتاريخ عمان وشرق إفريقيا قبل وصول السيد سعيد إلى الحكم .
كما له إلى جانب ذلك الكتاب محاضرة ألقاها في الجمعية الملكية الآسيوية في لندن في يوليو سنة ١٩٢٩ عن أسرة البوسعيد في الجزيرة العربية وشرق إفريقيا

The Al Bu Said Dynasty in Arabia and East Africa

كما له إلى جانب ذلك أيضاً قائمة تاريخية ببيولوجرافية خاصة بأسرة البوسعيد من مؤسسها أحمد بن سعيد إلى وفاة السيد سعيد :

Dates and References of the History of the Al Bu Said Dynasty from the time of it's founder Ahmed Bin Said till the death of Said Bin Sultan.

وبعد وفاة السيد سعيد انتهزت الحكومة البريطانية في الهند وقوع الصراع بين أبنائه ماجد وثويني فأوفدت لجنة للتحقيق في هذا النزاع وذهبت اللجنة إلى كل من مسقط وزنجبار ووضعت تقريراً استند عليه اللورد كاننج نائب الملك في الهند في إصدار تحكيمه المشهور والذي قضى فيه باستقلال زنجبار عن مسقط حيث تم إعلانهما سلطنتين مستقلتين بمقتضى التصريح الانجليزي الفرنسي المشترك الذي صدر في العام التالي ١٨٦٢ .

وهكذا استقلت سلطنة زنجبار عن عمان وفقدت بالتالي المقومات العربية التي كانت تعتمد عليها في إبراز شخصيتها العربية وبدأت تخضع منذ ذلك الوقت للتأثيرات الاستعمارية خاصة وأن الاستعمار الانجليزي حرص حرصاً شديداً على مسح الشخصية العربية للسلطنة ولم تعد اللغة العربية إلا لغة الطبقة

الأرستقراطية الحاكمة وأخذ معين المصادر العربية ينضب بالتالى ومع ذلك فقد حرص حكام السلطنة على اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية لهم وقد عثرا في المكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية على سجل للمراسلات السياسية للسيد برغش بن سعيد يحمل رقم ١٤٨٨ ويتكون هذا السجل من ثلاثة وعشرين ورقة تتخللها مكاتبات ذكر السجل أن بعضها بخط السلطان برغش وكلها تحمل تاريخ ١٢٨٦ هـ المقابل لعام ١٨٧٩ م .

وهذه المكاتبات موجهة من السيد برغش إلى ولاته في كل من قسمايو ولامو وكلوة وماليندى وبراووة كما يتضمن السجل مراسلات أخرى من السيد برغش إلى قناصل الدول الأجنبية في زنجبار خاصة قناصل إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وبيت الفريد رابو Rabaud وهو من البيوتات التجارية الفرنسية الشهيرة التى كان لها نشاط واضح في شرق إفريقيا . والملاحظة على هذه المكاتبات الموجهة إلى الولاة أنها تقتصر على الولاة القائمون بمدن الساحل بينما لا توجد مكاتبات لولاة المقاطعات الداخلة الأمر الذى يفهم منه أن السيد برغش بن سعيد لم يكن يمارس نفوذاً سياسياً على مقاطعات الداخل ، ولعل ذلك هو الذى شجع كل من ألمانيا وبريطانيا عند تقسيمها سلطنة زنجبار إلى مناطق نفوذ بريطانية وألمانية ألا يعترف السيد برغش بأى سلطان حقيقى له في الداخل وقصرت كل من الدولتين اعترافهما في المادة الأولى من اتفاقية أكتوبر سنة ١٨٨٦ على سلطة سلطان زنجبار على الجزر وعلى الساحل الممتد من منجاني جنوباً حتى لامو بعمق عشرة أميال في الداخل وعلى مدن قسمايو وبراووة ومركة ومقديشيو في دائرة قطرها عشرة أميال ، ووراشيخ في دائرة قطرها خمسة أميال . ولكن اللجنة تجاهلت الروابط الاقتصادية التى كانت تربط السلطنة بمقاطعات الداخل ففي عهد السيد برغش جهد التجار العرب للامتداد إلى الداخل واشتهر من هؤلاء التجار حميد الدين المرجبى أو تيبوتيب وللأسف أننا لا نملك مصادر عربية تتحدث عن هذا الرجل إلا ما أورده جورجى زيدان في كتابه عن أشهر مشاهير الشرق إذ أفرد له ترجمة في الجزء الأول

من كتابه وتعرض فيها للجهود التي بذلها المرجي في السيطرة على الكونغو وعلاقاته بكل من الانجليز والبلجيك .

وقد ذكر جورجى زيدان أنه نقل هذه الترجمة من الشيخ ناصر بن سليمان اللمكى وأورد فيها انتماء المرجي إلى قبيلة المراجعة وهذه القبيلة لعبت دوراً كبيراً في تأكيد النفوذ العربي على ساحل شرق إفريقيا واستعان بها الأئمة العاربة في القضاء على نفوذ البرتغاليين في القرن السابع عشر والثامن عشر وقد وصلت هذه القبيلة إلى زنجبار واستقرت بها منذ عهد السيد سعيد بن سلطان واتخذت مركزها جنوب مدينة دار السلام وقد ولد المرجي في زمن السيد سعيد في عام ١٢٤٨هـ ولكن نشاطه اتضح في عهد ماجد بن سعيد وأخيه برغش بن سعيد وقد استعان به كل من ماجد وبرغش في تأكيد نفوذهما في داخل إفريقيا وكانت كل من أوجيجى وتابوره والكونغو من أهم مناطق نشاطه في التجارة حيناً وفي السيطرة حيناً آخر ويستدل من ترجمة المرجي على أنه كانت له صلة مستمرة بسلطنة زنجبار الذين كانوا لا يوالون عن تقديم الأسلحة إليه وقد أورد المترجم رسالة بعث بها برغش بن سعيد إلى حميد بن محمد المرجي يهنئه فيها على انتصاره في تابوره وأوجيجى وقد استعان به كل من البلجيك والانجليز — لتهدئة نائرة العرب ضد البلجيك في الكونغو خاصة وأن البلجيك وجدوا مقاومة شديدة من التجار العرب في المنطقة وقد استعان البلجيك بالزنوج لطرد العرب نتيجة للعداء الذى عمدوا إلى تقويته بين الزنوج وبين تجار العرب من تجار الرقيق واستطاع القنصل الانجليزى في زنجبار التأثير على المرجي بالوعود حتى تم الاتفاق بين عرب الكونغو والبلجيك^(١) .

ولكن ماكاد يتم الاتفاق ويتمكن البلجيك من الاستقرار حتى نكلوا بالعرب وقضوا على دولتهم في الكونغو وإفريقية الوسطى .

ويستدل من ترجمة المرجي على النفوذ التجارى الذى كانت تتمتع به سلطنة زنجبار في داخل إفريقيا خاصة وأن سلطنة زنجبار كانت تعتمد منذ قيامها على الدعامة الاقتصادية وعلى حركة مرور القوافل من الساحل إلى

(١) جورجى زيدان — تراجم مشاهير الشرق ج ١ ص ١٦٨ — ١٧٣

الداخل حيث كانت تحصل على موارد كبيرة من العاج والرقيق ، وإلى جانب ترجمة جورجى زيدان لحמיד الدين المرجبى كتب عنه الأستاذ الشاطر بوصيلى مقالة صغيرة في مجلة نهضة إفريقيا والواقع أننا لانزال في حاجة إلى دراسات أخرى عن النفوذ العربى في الكنگو وفي أواسط إفريقيا وفي منطقة البحيرات الاستوائية ، وقد تفيدنا في ذلك الصدد كتابات الرحالة الأوربيين والمبشرين من رواد حركة التبشير والكشف الجغرافى في إفريقيا في النصف الثانى من القرن التاسع عشر خاصة وأن هؤلاء استفادوا من المراكز التجارية التى كان ينشئها التجار العرب على طول طرق القوافل والتى كانت بمثابة مراكز حضارية ساهمت إلى حد كبير في إلقاء الضوء على مجاهل القارة الأفريقية .

وقد امتدت سلطنة زنجبار في الوقت الذى حدث فيه التوسع المصرى في عهد الخديوى إسماعيل في إفريقيا حينما امتد النفوذ المصرى إلى بلاد السودان والبحر الأحمر ثم تدفق هذا النفوذ إلى ساحل الصومال . وتعتبر الإمبراطورية المصرية في إفريقية في عهد الخديوى إسماعيل وسلطنة زنجبار في عهد خلفاء السيد سعيد ، ماجد وبرغش ، أقوى الدول الإفريقية العربية التى كان من المنتظر أن يتكون من اتحادهما قوة يمكن أن تواجه النفوذ الاستعمارى الذى بدأت تتعرض له إفريقيا منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر وفي الواقع أننا نجد بعض المصادر العربية التى تحدثنا عن اتجاهات لتعاون هاتين الدولتين ، ثم نجد مصادر أخرى تحدثنا عن التوتر الذى حدث بينهما بفعل السياسة البريطانية التى حرصت على أن توقع بين هاتين القوتين حتى تتمكن من ابتلاع إحداهما وراء الأخرى بعد تقسيمها وتجزئتها إلى أجزاء صغيرة تسهل عليها عملية الابتلاع هذه .

ومن أهم المصادر التى أشارت إلى العلاقات بين مصر وسلطنة زنجبار كتاب اسماعيل سرهنك المعروف باسم حقائق الأخبار عن دول البحار والكتاب يقع في ثلاثة أجزاء يهمننا الجزء الثانى الذى يتعرض فيه لتاريخ مصر أما الجزئين الأول والثالث فهما يخرجان عن موضوع هذه الدراسة لأن الأول

يتناول تاريخ الدول الإسلامية البحرية والثالث يتناول بعض جوانب من تاريخ أوروبا ، ويوجد في الكتاب بعض صور الوثائق التي استطاع اسماعيل باشا سرهنك أن يحصل عليها بحكم مركزه وبحكم الوظائف التي تولاها في البحرية المصرية وبعض هذه الوثائق نادر لا يوجد في مراجع أخرى . ومن هذه الوثائق صورة خطاب كتبه السلطان ماجد بن سعيد سلطان زنجبار إلى الخديو إسماعيل في شهر محرم سنة ١٢٨٢ وسلمه إلى قائد السفينتين المصريتين الإبراهيمية وسمنود بمناسبة مرورهما بزنجبار في طريقهما من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر عن طريق رأس الرجاء الصالح قبل افتتاح قناة السويس . وكانت هذه السفن قد أوصى الخديو اسماعيل بشرائها من أوروبا ، وأمر بنقلهما إلى مصر وسافرت السفينة الأولى الإبراهيمية في عام ١٢٨١ هـ تحت قيادة مصطفى بك العربي وقد عرج في طريقه على زنجبار حيث أكرم سلطانها وفادته هو وجميع من كان بالسفينة المذكورة من المصريين وأهدى قبطان السفينة سيفاً مرصعاً وأشياء أخرى ، وأرسل معه رسالة ودية إلى الخديو إسماعيل وكتب له الخديو يشكره على ذلك برسالة ودية أخرى (١) .

أما الوثيقة الثانية التي ذكرها سرهنك فتتضمن مشروع معاهدة بين مصر وزنجبار ، ويذكر بصدد ذلك أن الحملات العسكرية كانت منذ عام ١٨٧٥ تسافر إثر بعضها إلى قلب القارة الأفريقية لبث النفوذ المصرى بين قبائلها وسكانها وكانت تلك القبائل تقابلهم بالحفاوة والخضوع وفي عام ١٨٧٢ وصلت إحدى هذه الحملات المصرية العسكرية عن طريق أوغندا إلى زنجبار . وهناك استقبلت بترحاب بالغ وأظهر لها السكان ميلهم إلى الحكومة المصرية وقابل قائدها ملك زنجبار الذي أكرم مثواه وأظهر له شديد رغبته في مصادقة الحكومة المصرية وأنه يريد الاستقلال بالعلم العشاني المصرى على شرط أن يكون صاحب امتياز يضمن له حقوقه وحقوق أسرته ورعاياه

(١) اسماعيل سرهنك - حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ ،

وأخبره أنه يخطب باسم أمير المؤمنين وسلطان العثمانيين في كل بلاده ثم عقد مع القائد المصري معاهدة كانت تتكون من مواد ستة :

تنص المادة الأولى على أن تكون سلطنة زنجبار تحت الحماية الإسلامية العثمانية المصرية ويكون الملك محصوراً بالتوارث بين ذرية السلطان الحالي أو بين أعضاء أسرته ، بمعنى أن يكون امتياز السلطان في سلطته شبيهاً بامتياز الخديو إسماعيل باشا وأسرته في مصر .

وتنص المادة الثانية على أن ترسل الحكومة المصرية موظفين من قبلها ليقوموا بتأليف هيئة الحكومة في زنجبار وتنظيم المالية والجند طبقاً للأنظمة المتبعة في الحكومة المصرية . ولا يجوز تعيين مصرى لأية وظيفة كانت إذا وجد وطنى يقدر على القيام بها .

وتنص المادة الثالثة على أن ترسل الحكومة المصرية مندوبين من أصدقائها ورجالها الخبيرين ليؤيدوا كل النظم التي تسن في مملكة زنجبار بشأن إنشاء نظارات مالية وداخلية وحرية ونظارة معارف ونظارة أشغال يكون التلاميذ المتخرجون في مدارس السلطنة مقدمين على غيرهم في الترشيح للوظائف ولا يجوز لمصر أن تطلب عساكر من زنجبار إلا إذا حدثت حرب دينية بين أمير المؤمنين وعدو آخر فيطلب هو نفسه حيثئذ جنوداً من زنجبار ثم أن علائق مملكة زنجبار وصلات شئونها كلها مع الدول الأجنبية يكون عقدها وحلها على يد نظارة الخارجية المصرية .

وتنص المادة الرابعة على أنه لا يجوز للحكومة المصرية في سلطنة زنجبار أن تعين أحداً من الأجانب الغير مسلمين إلا إذا كانوا من رعاياها فلا بأس حيثئذ من منحهم وظائف .

أما المادة الخامسة فقد نصت على أن جميع الأموال التي تجبي من مملكة زنجبار تنفق في شئونها وما بقى بعد ذلك يؤخذ إلى الخزانة المصرية وتكون مصر ملزمة بصرف كل أزمة مالية أو عسكرية تصيب سلطنة زنجبار .

أما المادة السادسة وهى المادة الأخيرة من مشروع هذه المعاهدة فقد نصت على أن تكون هذه المعاهدة سارية المفعول بعد اطلاع خديو مصر عليها وإصدار أمر بقبولها .

ولكن سرهنك يذكر أن غوردون ، وكان حينئذ حاكماً على مديرية خط الاستواء ، عرقل هذه المساعي فكتب إلى السلطان برغش يحذره من وقوع سلطنته تحت الحماية المصرية وفي نفس الوقت أوفد إلى الخديو إسماعيل بأن سلطان زنجبار يسئء معاملة التجار المصريين (١) .

والواقع أن إسماعيل سرهنك هو الذى انفرد بتفصيل ذلك الموضوع إذ لم نعر على مشروع هذه المعاهدة في وثائق عابدين أو في المصادر الأخرى التى تعرضت للعلاقات بين مصر وزنجبار .

أما وثائق عابدين فهى تعرض للعلاقات الودية بين مصر وزنجبار ثم تعرض أيضاً لتوتر العلاقات بينهما ففى محافظ السودان ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) توجد بعض الوثائق التى تتناول مرور السيد برغش بن سعيد بقناة السويس عند زيارته للملكة فيكتوريا بلندن (٢) ، ثم عن زيارته لمصر عند عودته من لندن وعن الهدايا التى أرسلت من مصر والتى كانت تتضمن بعض الأسلحة والكتب إلى زنجبار بمناسبة هذه الزيارة (٣) ، وعن حضوره احتفال مهرجان جبر النيل مع الخديوى إسماعيل في عام ١٨٧٥ (٤) .

ولكننا نجد في وثائق أخرى بؤادر عن الصدامات التى وقعت بين سياسة إسماعيل في الصومال وبين سلطات زنجبار التى كانت تسيطر على الجزء الجنوبي

(١) سرهنك - حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٣١٩
(٢) وثائق عابدين - صورة التلغراف رقم ١٥٦ بتاريخ ١٨ ربيع ثانى ١٢٩٢ من محافظ السويس الى المعية السنية .

انظر أيضا تلغراف رقم ١٧٥ بتاريخ ٢٠ ربيع ثانى ١٢٩٢ من محافظ بورسعيد الى مهردار الخديوى .

(٣) انظر محافظ السودان ١٢٩٢ دفتر رقم ٣٢ صورة التلغراف العربى رقم ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٩ بتاريخ ٨/٦/٥ رجب ١٢٩٢ من محافظ مصر الى مهردار خديوى .

(٤) وثائق عابدين دفتر رقم ٣٢ صورة التلغراف العربى رقم ١٠٩ من محافظ مصر الى سعادة مهردار الخديوى .

من ساحل الصومال ، وذلك بعد أن حاول إسماعيل تنفيذ المشروع الخاص بضم البلاد الواقعة جنوب غندكرو وذلك بواسطة الطريق الموصل من منبسة إلى أوغندة . وكان هذا المشروع قد عرضه الضابط الأمريكي « شاي لونج » على الخديو في بداية الأمر وعرضه الخديو إسماعيل بدوره على غوردون باشا حاكم مديرية خط الاستواء . ويلاحظ أن هذه المراسلات الخاصة بفتح هذا الطريق كانت تتم بتكتم شديد ، ويفهم من الوثائق أن الانجليز كانوا يعملون على عرقلة المشروع المصرى وذلك بتأكيد حقوق سلطان زنجبار على الساحل وقد ظهر ذلك على وجه الخصوص في عام ١٨٧٥ بعد نجاح مصر في الاستيلاء على هرر وبدأت تعمل على الاستيلاء على ساحل الصومال جنوب المحيط الهندي والذي كان يتبع سلطنة زنجبار لتحقيق مشروع عاجل يتصل اتصالاً كلياً بالمشروع العام الخاص بتوسع مصر في إفريقية ، ويقتضى هذا المشروع امتلاك مصر لمنفذ على ساحل إفريقيا الشرقي في موازاة خط الاستواء لإنشاء مواصلات مع المديرية الاستوائية التي كان قد تم فتحها تكون أسهل وأقصر من مواصلات النيل ، ومن العجيب أن هذا المشروع الضخم ستعمل إنجلترا على إحباطه ، ولكنها ستعاود تنفيذه بنفسها فيما بعد حينما عملت إبان الحرب العالمية الأولى على إنشاء سكة حديد كيبالا - منبسة .

والواقع أن تفكير الخديو في هذا المشروع يرجع إلى عام ١٨٧١ وكانت آخر محاولة لتنفيذه في عام ١٨٧٦ . وقد مرت جميع محاولات تنفيذ المشروع بتكتم بالغ ، كما حرص الخديو إسماعيل أن يبعث إلى قواد حملاته بأن لايسيثوا إلى القبائل الإفريقية ولا يسيثوا في نفس الوقت لتجار العاج والرقيق وتوضح هذه السياسة في رسالة بعث بها إسماعيل إلى الكولونيل بيوردي Burdy يطلب منه أن يتبع سياسة معتدلة إزاء القبائل الأفريقية يقول فيها « يجب أن نفهم أن مهمتنا لايربطها بمهمة تجار العاج والرقيق أى غرض مشترك والتجار يجب أن يفهموا أنك لاتذهب للإضرار بمصالحهم » ، غير أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح ومن ناحية أخرى أن التوسع المصرى في منطقة البحيرات الاستوائية لم يكن قد استتب بطريقة تسمح أن يتم هذا الاتصال بين الساحل والداخل .

ولكن في عام ١٨٧٤ بدأت الممتلكات المصرية تتسع في جنوب السودان وأعلن الخديو رسمياً بأن البلاد التي حول غندكرو دخلت في حوزة الخديوية المصرية وسميت غندكرو باسم الاسماعيلية وعين الكولونيل غردون حاكماً لمديرية خط الاستواء في نفس ذلك العام ليتم ما كان قد شرع فيه السير صمويل بيكر من مد نفوذ مصر إلى بحيرة فيكتوريا نياترا . وفي عام ١٨٧٥ عزم الخديوى إسماعيل على إرسال تجريدة مصرية إلى بلاد الصومال الجنوبية لإدخال البلاد الواقعة على نهر جوبا المذكور في قبضة مصر حتى يتيسر له إيصال أملاكها في شرق إفريقيا بما لها من ممتلكات في جهات خط الاستواء فجهز لذلك تجريدة عسكرية بقيادة ماكيلوب باشا رئيس مصلحة المنارات بدلاً من القائد الأمريكى بيوردي ويبدو أنه كان يهدف من ذلك استمالة الانجليز إليه وإن كان ذلك لم يمنع الخديو من مراقبة ماكيلوب بواسطة شاي لونج الأمريكى الذى أشركه معه في الحملة وكذلك بواسطة بعض القواد والمهندسين المصريين^(١) .

وقد أفلحت هذه الحملة من ميناء السويس في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٥ ولما وصلت إلى رأس حفون نزل ماكيلوب واستدعى جميع رؤساء القبائل ودعاهم للانتماء إلى الحكومة المصرية فأجابوه إلى ذلك طائعين فخلع عليهم وركز العلم العثماني المصري هناك ثم بارح ذلك المكان ولم يبق به حامية ومازال يتقدم ويركز الأعلام المصرية العثمانية حتى وصل بلدة براوة شرقي نهر الجب وكانت تابعة لحكومة زنجبار فأرست البواخر المصرية هناك ثم نزلت نصف القوة المصرية إلى البر ومعها مكيلوب باشا الذى طلب مشايخ القبائل فلما حضروا عرض عليهم أمر الاتحاد مع مصر وأنهمهم ما في ذلك من الفوائد لهم فأجابوا بالقبول لما رأوه من القوة المصرية التي هالتهم وأدهشتهم بحركاتها الحربية التي أجرتها أمامهم ولم يكونوا شاهدوا ذلك قبلاً وجعل لهم محافظاً وحامية مركبة من بلوك من البيادة، ثم تقدم هذا القائد حتى وصل إلى فم نهر جوبا المذكور وأراد السير فيه إلا أن الأمواج صلدته

(١) محمد صبرى — تاريخ الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ص ٢٩ — ٣١ القاهرة ١٩٤٨

وغرقت بعض المراكب والعساكر ولما أخذ ما يلزمه من مياه الشرب عاد إلى قسمايو التي سميت في الخريطة التي وضعها ضباط أركان حرب الجيش المصرى باسم بور اسماعيل التي اندهش أهلها لما رأوا هذه التجريدة وأقبلوا في زوارقهم سائلين من أين أتت وما المقصود من حضورها فأخبرهم القائد بأن القصد اكتشاف نهر الجب وأنه لا خوف عليهم وبعد ثلاثة أيام نزلت العساكر إلى البر وسارت نحو النهر وأخذ الكولونيل لونج بالاكشاف في النهر على زورق بخارى على مسافة ١٥٠ ميل ورسم أحد ضباط الحملة خريطة وصف فيها مجرى هذا النهر .

وقد ذكر شاي لونج أنه كان ينتظر اتصال غردون به في هذا الشأن للوصول إلى المناطق الداخلية ولكنه لم يتلق أى رسالة منه ويعتقد أن ذلك كان نتيجة لوصول تعليمات من الحكومة الإنجليزية إلى غردون توجب عليه عدم التعاون مع الحملة المصرية (١) .

وتسجل لنا وثائق عابدين (٢) صحة ما ذهب إليه لونج في اعتقاده ففى برقية سرية في ٩ محرم ١٢٩٢ من الخديو اسماعيل إلى الكولونيل شاي لونج رداً على برقيته يقول فيها «بخصوص اتخاذ الطريق الموصل من منبسة إلى محل إقامة العساكر بقرب الملك متميزة لأجل الحصول على البلاد الكائنة بجنوب كندكرو حيث أن هذه المسألة يقتضى الوقوف عن أفكار ومعلومات غردون باشا فيها ، فيقتضى مذاكرتكم والوقوف على حقيقة آراءه ومعلوماته في ذلك مع أخذ التقارير والتعليمات التي تختص بهذه المسألة منه بحيث تكون مستوفية ، وتكون هذه المسألة سرية بينكم وبينه دون أن يشعر بها أحد» (٣) .

كما بعث الخديو إلى غردون يطلب منه التعاون معه وإمداده بمعلومات عن المنطقة ولكن من المؤكد أن غردون أهمل الإتصال بلونج وبعث إلى الخديو

(١) اسماعيل مرهوك - حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢
(٢) ذكر شاي لونج أن الفرض لم يكن مجرد كشف وإنما محاولة الوصول إلى منطقة البحيرات الاستوائية وكانت الحملة تنتظر اتصال غردون بها بهذا الشأن ولكنها لم تتلق أى اتصال من الخديو ويبدو أن ذلك كان نتيجة لوصول تعليمات من الحكومة الإنجليزية إلى غردون توجب عليه عدم التعاون مع الحملة . وفي الواقع أننا نجد في وثائق عابدين ما يؤيد هذا الاعتقاد .
(٣) محافظ السودان ١٢٩٢ دفتر ٢١ عابدين صورة التفراف العربى .

«أنه من المستحسن أن تترك الفكرة بافتتاح السكة إلى البحر المالح مؤقتاً لأنه باطلاعنا على الفزيتات وجدنا أن الإنجليز أخذوا ممباز لأجل إعطائها إلى سلطان زنجبار ، وما دام أخذوها فلا يكن لنا فيها مدخل ، ويقترح على الخديو أن يعدل عن هذا المشروع ويستعيز عنه بمشروع آخر وهو المشروع الذي يوصل هذه المنطقة بطريق النيل وأن فتوح السكة لحد البرك أمر مهم جداً» (١).

وبينما كانت القوات المصرية تنتظر اتصالات غردون بها بلا جلوى بدأت هذه القوات تتعرض لضغط الإنجليز عليها ، وتسجل وثائق القاهرة أن الإنجليز تدخلوا في هذه المناطق باسم سلطان زنجبار على الرغم مما حاولته الحملة المصرية أن تتحاشى بقدر الإمكان الاحتكاك بينها وبين المناطق التي تظهر فيها السيادة واضحة بالنسبة لسلطنة زنجبار عليها ، ولكن رؤساء القبائل كانوا يخشون على مراكزهم بطبيعة الحال من الحملة المصرية على الرغم من ترحيبهم بها في بداية الأمر ، فبعثوا إلى السلطان برغش سلطان زنجبار بأن الحكومة المصرية تريد الإستيلاء على بلادهم كما أن قبائل براوه حاصرت محافظ براوة المصري هو ومن معه من الجنود . وتكشف بعض الوثائق أن قائد الحملة بعث يشتري فحماً لوقود السفن من زنجبار ، وهذا يثبت أن المناطق التي استولت عليها مصر في ساحل الصومال الجنوبي كانت تبعيةها لسلطان زنجبار تكاد تكون غير واضحة تماماً ومع ذلك فقد طلب سلطان زنجبار من قائد السفينة التي ذهبت لشراء الوقود ، بعد أن أجابه إلى طلبه ، ضرورة مغادرة هذه المناطق قبل أن يتفاقم الأمر ، ورد قائد السفينة بأن القوات المصرية لا تفكر في احتلال هذه المناطق وإنما قدمت لاكتشاف تلك الجهات ولكن السلطان ألح عليه بضرورة الانسحاب وإلا فإنه سيعلم إنجليزاً بما حدث لأنه هو وبلاده تحت حمايتها ، وبطبيعة الحال أن إنجليزاً لم تكن تنتظر أن يطلعها سلطان زنجبار على التحركات المصرية إذ أسرع القنصل البريطاني في زنجبار الدكتور جون كيرك Kirk بإرسال مدفعية إنجليزية إلى براوة

(١) محافظ السودان ١٢٩٢ . صورة التلغراف العربي — الشفرة رقم

الوقوف على حقيقة الأمر وبالفعل تقابل القائد الإنجليزي مع ماكيلوب باشا قائد الحملة المصرية الذى كان قد تمكن من فك حصار القوات المصرية في براوة وأعاد الأمن للمدينة .

وتنتهى حوادث حملة الصومال الجنوبي في عام ١٨٧٦ بتوقيع الإتفاقية المصرية الإنجليزية الخاصة بتجارة الرقيق في عام ١٨٧٧ ويمكن القول أن الخديو اسماعيل أثر عدم التصادم مع الإنجليز ومن ناحية أخرى يفهم من التقرير الذى أعده فريدريجو باشا مفتش عموم وابورات البوستة الخديوية الذى كان قد أوفده الخديو للتفتيش على النقاط التى احتلتها هذه الحملة بأن المواصلات بين النقاط العسكرية صعبة ولذلك طلب الخديو من ماكيلوب باشا الإنسحاب خاصة وأن مصر كانت مقيلة على حرب ضد الحيشة وأن بريطانيا لم تكن ترحب بوصول مصر إلى هذه المناطق .

وقد يكون من المناسب أن نعرض هنا لتقرير عن حوادث مأمورية سواحل إفريقيا الشرقية وهذا التقرير مقدم من عبد الرزاق بك رئيس أركان حرب المأمورية وناظر المدرسة الحربية وهو مؤرخ في ٨ ذى القعدة ١٢٩٢ الموافق ٦ ديسمبر ١٨٧٥ ، ويحتوى هذا التقرير على ثلاث وقائع هامة مرتبطة بعضها ببعض وهى توضح التطورات التى مرت بها حملة الصومال الجنوبي المصرية ، الأولى : أن ماكيلوب باشا وفريدريجو باشا والكونونيل ورد بك قاموا على رأس قوة لاستكشاف جهة لامو وفورموزا في طريق منبسة وأن أحد أمراء جزر القومور أخبر بوجود معدن فحم حجرى ونحاس غربي منبسة وأن أهالى تلك الجهة يودون التبع للحكومة المصرية .

والثانية : أن الأمير محمد نجل السلطان عبد الله سلطان جزيرة خزوان ومعه كتاب من سلطان جزيرة القومور الكبرى أبدوا رغبتهم في التبع للحكومة المصرية وكذا جزيرة مهلة وبنلر منياص ، وأنهم وصلوا قسمايو بقصد التوجه إلى المحروسة في ظل الحكومة الخديوية وهذه الجزائر المختلفة تسمى جزائر القومور وهى واقعة في الشمال الغربي من جزيرة مدغشقر .

أما الواقعة الثالثة فهى وصول كتاب من قومندان براوة يقول فيه « إنه بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٨٧٥ وصلت سفينة حربية إنجليزية بالقرب من براوة

وأن قومندان السفينة بصحبة أحد قناصل الإنجليز وترجمان بعض الجنود الإنجليز أرادوا النزول إلى البر ولكن اليوزباشى قومندان براوة أفهمهم أنه لا يستطيع الإذن لهم بإنزال جنود مسلحين على أرض تحتلها القوات المصرية ، وأنه بتاريخ أول ديسمبر سلم أحد ضباط السفينة خطاباً إلى اليوزباشى يبلغه فيه أنه لم يمنع قط من قبل من إنزال جنود مسلحين في هذه المناطق فرد اليوزباشى أن هذه البلاد أصبحت تابعة لمصر وعندئذ غادرت السفينة براوة قاصدة زنجبار ، وجاء في الختام أن هذه السفينة كانت مكلفة بقمع تجارة الرقيق على سواحل إفريقيا الشرقية .

والواقع أن بريطانيا استغلت حركة مكافحة تجارة الرقيق للسيطرة على المواني التابعة لمصر وزنجبار في سواحل إفريقيا الشرقية والمهم أن وصول القوات المصرية إلى ساحل الصومال الجنوبي كان محاولة من جانب مصر لتسبق إنجلترا في السيطرة على هذه المناطق التي لم تكن تتبع سلطنة زنجبار سوى تبعية إسمية واهية ، ومع ذلك فقد أوعزت إنجلترا للسيد برغش بن سعيد أن يحتج على احتلال مصر لهذه المناطق وبادرت من جانبها إلى تأييده وبالفعل تجحت في حمل الحديدو اسماعيل على التراجع عن حملة جنوب الصومال ، واضطرت مصر أن تنسحب من هذه المناطق دون أن تنفذ مشروعها الحيوى الذى كان يقضى بإيصال سواحل إفريقيا الشرقى بمنطقة البحيرات الاستوائية وتدعيم النفوذ المصرى في السواحل الجنوبية للصومال . وإذا كانت اتفاقية الرقيق التى عقدها إنجلترا مع مصر في عام ١٨٧٧ قد نصت على اعتراف إنجلترا بسلطان الحديدو المصرية على بلاد الصومال حتى رأس خفون إلا أنها اشترطت على تعهد الحديدو بعدم التنازل لأية دولة أجنبية عن أية قطعة من هذه البلاد ، وتحويل الحكومة الإنجليزية حق تعيين قناصلها في المواني الواقعة على سواحل البلاد المذكورة .

وتوجد لدينا بالإضافة إلى ما سجلته وثائق عابدين بعض المصادر العربية التى تعرضت لحملة الصومال الجنوبي فبالإضافة إلى كتاب إسماعيل باشا سرهنك أشار إلى حوادث تلك الحملة وتفاصيل الصدامات التى وقعت

بين الخديو اسماعيل وسليمان زنجبار المؤيد من جانب الإنجليز الدكتور محمد صبرى في كتابه الإمبراطورية المصرية في القرن التاسع عشر ، ومصر في إفريقيا الشرقية ، وقد اهتم في الكتاب الأخير بالدور الحضارى والعمراني الذى قامت به مصر مستنداً في ذلك إلى الوثائق المصرية ومشيراً بصفة خاصة إلى تقرير بعث به رضوان باشا إلى مهردار الخديو بتاريخ ١٨ شوال ١٢٩٢ الموافق ١٧ نوفمبر ١٨٧٥ يقرر فيه بعض الأعمال التى قامت بها البعثة المصرية في منطقة نهر الجب ومن ذلك إنشاء بستان مساحته مائة فدان كما ذكر في التقرير أن الأشجار كثيرة على ضفاف نهر الجب وأن خشبها يشبه الخشب الذى يورد من تركيا وطلب إرسال خطابين ونجارين وبنائين لتشديد بيوت من الحجر .. كما أشار إلى وثيقة أخرى بعث بها ماكيلوب باشا في ١٤ ذى القعدة ١٢٩٢ الموافق ١٢ ديسمبر ١٨٧٥ يقول فيها إن عبد الرزاق بك يطلب ٣١٢ رجلاً من جميع الحرف والمهن من أطباء ومهندسين ونجارين وزراعى وخبازين وطلب أشياء أخرى كثيرة لترقية المدائن وكان عبد الرزاق بك قد قام باكتشاف منطقة نهر الجب ، وإن كانت إنجلترا لم تمهله لإنفاذ وإتمام مشروعاته كما لم تمهل الحملة المصرية لتنشر الحضارة في هذه الربوع المتعطشة إليها^(٩) .

وهناك أيضاً مجموعة من الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣ - ١٨٧٩) التى قام بجمعها وتحقيقها الدكتور شوقي الجمل وبها مجموعة من الوثائق المختارة عن حملة الصومال الجنوبي وتبع التطورات التى مرت بها البعثة المصرية منذ صدور الأمر بتشكيلها إلى انسحابها ، وتسجيل الاتصالات والمراسلات بين الحملة والخديو في مصر ، ويتضح من هذه الوثائق التقدم الذى أحرزته الحملة المصرية في سواحل الصومال وعن ضم المصريين لقسمائهم ، وعن خضوع مشايخ براوة الذين كانوا يتبعون قبل ذلك سلطان زنجبار للحكومة المصرية لاطمئنانهم إلى الأمن الذى أشاعته الإدارة المصرية في المناطق التى كانت قد استحوزت عليها

تم تسجيل لاعتراض سلطان زنجبار مدفوعاً إلى ذلك من قبل القنصل الإنجليزي جون كيرك ضد هذه الحملة ، وأخيراً انسحاب البعثة يكامل هيئتها من براوة وقسمايو وغيرها من جهات الصومال الجنوبي (١) .

والواقع أن العلاقة بين الخديوية المصرية وسلطنة زنجبار في مختلف جوانبها تحتاج إلى مزيد من الإيضاحات والدراسة التحليلية التفصيلية خاصة وأن الدور الذي قامت به الدولتان كان متشابهاً في نشر الحضارة في أواسط القارة الإفريقية كما كان المصير الذي آلت إليه ممتلكات هاتين الدولتين متشابهاً في وقوعهما فريسة للأطماع الأوربية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

ويسجل عام ١٨٨٦ و ١٨٩٠ تقسيم سلطنة زنجبار بين القوى الإستعمارية للطامعة في ممتلكاتها وهي إنجلترا وألمانيا وإيطاليا ، وتنقطع المصادر العربية التي تعالج تاريخ شرق إفريقيا التي خضعت بشكل أقوى للمؤثرات الإستعمارية العنيفة ، ومع ذلك فتوجد لدينا بعض المصادر العربية المتعلقة بهذه الفترة وإن كانت لا ترقى إلى مستوى المصادر التي تعرضنا لها فيما سبق . ومن هذه المصادر تسجيلاً لرحلة قام بها السلطان حمود بن محمد بن سعيد إلى مقاطعات الشرق الإفريقي في عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨) (٢) .

وقد سجل هذه الرحلة الشيخ ناصر بن سالم بن عديم الرواحي ، وهو شاعر عماني معروف كان ملازماً للسلطان ، وضمن الرحلة ترجمة للسلطان وإسم الكتاب « السيرة السنية للسماة باللوامع البرقية في رحلة مولانا السلطان حمود بن محمد سعيد بن سلطان » ومن المتوقع أن هدف هذه الرحلة محاولة السلطان تأكيد سيطرته على مقاطعات الساحل الشرقي لأفريقيا ومن المعروف أن سلاطنة زنجبار قد دأبو على القيام برحلات لتنفذ شئون ممتلكاتهم نتيجة للضغط الأوربي عليها ، بل إن السلطان يرغش قام برحلة إلى مسقط على أمل أن يعيد الصلة بينه وبين أبناء عمومته بعد أن وجد ممتلكاته

(١) شوحي الجمل ، الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر
انظر وثائق حملة الصومال الجنوبي ص ١٥٤ الى ١٦٦
(٢) انظر ناصر بن سالم بن عديم الرواحي ، اللوامع البرقية طبع
زنجبار ١٣١٦ هـ

في شرق إفريقيا تنقسمها الدول الأوربية وإن كان بعد ذهابه إلى مسقط قد أدرك أن الأسرة هناك لم تكن أقل منه خضوعاً لبريطانيا . وحينما تنقل حمود بن سعيد إلى المقاطعات الساحلية في شرق إفريقيا وجد الإنجليز هم المسيطرين على الأمر فيها كما وجد القنصل البريطاني السير آرثر هاردنج هو الحاكم بأمره .

وقد سجل لنا أحد الرحالة المصريين ويدعى توفيق ميخائيل أوضاع سلطنة زنجبار في ظل السيطرة البريطانية في كتاب نشر في القاهرة سنة ١٩٠١ بعنوان حقائق الأخبار عن شرق إفريقيا وزنجبار وتعرض المؤلف في هذا الكتاب إلى وصف رحلته التي قام بها في عام ١٨٩٩ ووصف سكان زنجبار وغيرهم من سكان مقاطعات الشرق الإفريقي ولاحظ بصفة خاصة سيطرة الهنود Banians على المعاملات التجارية ، كما أورد في كتابه ترجمة للسيد حمود بن سعيد كما تعرض أيضاً لرحلة برغش بن سعيد إلى مصر بدعوة من الخديو إسماعيل بعد زيارته لبريطانيا . كما لاحظ أن السلطنة ترتبط بشعور الولاء الروحي للخليفة العثماني ، ومن المؤكد أن ذلك كان صدى لحركة الجامعة الإسلامية التي شملت أقطار العالم الإسلامي في هذه الفترة وإن كان ذلك لا يعني ارتباط سلطنة زنجبار سياسياً بالسلطنة العثمانية^(١) .

ويمكن أن نختم هذه المصادر بمصدر هام كتبه الشيخ حميد الدين السالمى بعنوان تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ويقع هذا الكتاب في مجلدين ، وعلى الرغم من أنه يركز على إقليم عمان شأنه شأن غيره من المصادر العمانية إلا أنه يعرض في ثانيا ذلك لصلة شرق إفريقيا بعمان خاصة ما قامت به الإمامة اليعروبية من محاولات موفقة لطرد البرتغاليين من الخليج العربي وشرق إفريقيا في النصف الثاني من القرن السابع عشر . وفيما يبدو لنا أن السالمى على الرغم من أنه عاش في الفترة من أواخر القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين إلا أنه سجل تاريخ الإمامة الأباضية في عصورها المختلفة ، معتمداً في

(١) توفيق ميخائيل - غرائب الأخبار عن شرق إفريقيا وزنجبار
ص ٩٩ - ١٠٠

ذلك على مادة أصيلة وإن كنا لانعرف عما إذا كان مصدر هذه المادة لا يزال موجوداً حتى الآن . كما يلاحظ اتجاه السالمى ، باعتباره أشد المتحمسين لبعث الإمامة الأباضية في السنوات الأولى من القرن العشرين ، إلى تمجيد الإمامة الأباضية مقارناً بين ما كانت عليه الإمامة من تفوق في القرن السابع عشر ، حين تصدت للبرتغاليين في الخليج العربي وسواحل الهند وشرق إفريقيا ، وما صار إليه الحكم من تفكك وانقسام في عهد آل أبي سعيد . وقد تعرض السالمى في المجلد الأول للتدخل العماني في شرق إفريقيا في عهد الإمام سلطان بن بن سيف العربي ، كما تعرض في المجلد الثاني لدولة البوسعيد إلى السنوات السابقة لحياته (١) . وقد قام بتحقيق كتاب السالمى ونشره الشيخ طيفيش الجزائرى وهو أحد أباضى الجزائر (٢) .

هذا هو ما أمكننا الوصول إليه من المصادر المحلية والعامة التى تحدثت عن المنطقة التى تعرضنا لها في نطاق هذه الدراسة . والأمر الذى نؤكد عليه أنه لاتزال توجد الكثير من المخطوطات العربية والسواحلية في أيدي سكان المنطقة ، والواقع أننا أشد ما نكون احتياجاً لدراسة هذه المصادر واستخلاص المادة التاريخية منها لما قد تعطيه لنا من بعض الجوانب الهامة الخاصة بتاريخ المنطقة ، وإذا كان من الممكن الاعتماد على المصادر الأوروبية بعد العصر البرتغالى فإن الفترة التى سبقت العصر البرتغالى لاتزال بحاجة إلى مادة تاريخية أكثر من المادة التى بين أيدينا الآن فقد لاحظنا أن المصادر العامة أو بالأحرى المتبقى لنا منها ليست موفية بالحاجة ، والمصادر المحلية العربية المعروفة لدينا ليست كافية ولا تعرض لنا التطور التاريخى لإمارات ساحل شرق إفريقيا في العصر الإسلامى باستثناء ما لدينا عن تاريخ كلوة السابق الإشارة إليه ، ولذلك فإن الاعتماد ينصب أساساً على الروايات السواحلية ، وقد يكون من حسن الحظ أن هذه الروايات متوافرة وإن كانت لاتزال تحتاج إلى مزيد من الدراسة وإزالة ما علق بها من خيال ، وينبغى أن

(١) مات السالمى في عام ١٩١٣ قبل بعث الإمامة الأباضية في ذلك العام

بقليل .

(٢) تحفة الأعيان بسيرة آل عيمان - للإمام حميد الدين السالمى في

مجلدين .

نوه بالجهود التي بذلها كل من Stigand و Prins و Hichens في دراسة هذه الروايات وإحرازهم نجاحاً كبيراً في العثور على سجلات لكل من تاريخ لامو وبات استخلصوا منها مادة تاريخية ذات أهمية كبيرة في تطور الإمارات الإسلامية في شرق إفريقيا^(١) خاصة تاريخ الأسرة النبهانية في جزيرة بات وخبر لامو لشييو فرج بن حمد الباقرى ، وهى مخطوطة سواحلية حققها هتشير وأشار إليها في كتابه الإسلام في شرق إفريقيا^(٢) .

وليس من شك في أن تاريخ العرب في شرق إفريقيا من الصفحات المجيدة في التاريخ الأفريقى أو التاريخ العربى في إفريقيا ولأرجو أن تتاح الظروف للدارسين لاقتفاء آثار العرب في إفريقية قبل أن تضيع المدونات العربية ، أو يقتصر الدارسون على المصادر الأوربية وحدها ، فإن هذه المصادر كتبت بطبيعة الحال بالنظرة الأوربية وكان صعباً عليها أن ترى حسنة من حسنات العرب . ولذلك فقد يكون من واجبي هنا أن أدعو جامعاتنا والمهتمين بدراسة تاريخ أفريقيا بصفة خاصة إلى ضرورة الاهتمام بالمصادر العربية والاتصال بالمراكز الثقافية ، ودور المخطوطات الأوربية ، والهيئات العلمية بشرق إفريقيا للتعاون في نشر التراث العربى الأفريقى .

(١) انظر فى ذلك : Prins, The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast (Arab — Shiraz and Swahili) London 1961 See also A. Warner, A Swahili History of Pate, Stigand, in the Land of Zinj London 1913, and Freeman grenville, The East African Coast selected documents from the first to the earlier 19th century, London 1962.

Cf. Hichens, Islam in East Africa. (٢)

مصادر البحث

أولا - وثائق غير منشورة :

وثائق عابدين : محافظ السودان السنوات المشار إليها في الدراسة .

ثانيا - وثائق منشورة :

جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية -
القاهرة ١٩٢٧

سجل المكاتبات السياسية في عهد السلطان برغش بن سعيد ١٨٧٦

شوقي الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر -
القاهرة .

Ferrand — Gabriel

Documents Historiques et Textes Geographique Arabes,
Persans et Turks Relatif a l'Extreine Orient de VIIIe
au XVIIIe siecles, 2 Tomes Paris 1913

Greenville — Freeman

Select Documents on the East African Coast

Guillain

Document sur l'Histoire Geographic et le Commerce de
l'Afrique Orientale Paris 1956

Tome I, Expose Critiques de diverses Notions acquises sur
l'Afrique Orientale depuis les temps le Plus Jours Jusqu'
à nos Jours

Tome II, III, Relation de Voyage d'Exploration a la Côte
Orientale d'Afrique. Exécuté Pendant les années 1847, 1848

Zôe March,

East Africa Through Contemporary Records

London 1961

ثالثا - المصادر العربية :

أحمد بن ماجد وسليمان المهري .

راجع مؤلفات أحمد بن ماجد وسليمان المهري عن النسخة الزنكوغرافية
المنقولة عن المكتبة الأهلية بباريس والمحفظة بدار الكتب المصرية .

- ابو زيد السيراقي : رحلة التاجر سليمان - انظر : سلسلة التواريخ
دار الطباعة السلطانية - باريس ١٨١١
- ابن بطوطة : تحفة النظار في عجائب الامصار - مجلدين - القاهرة ١٩٣٣
- ابن الوردي : فريدة العجائب وفريدة الغرائب .
- آدم منتر : الحضارة الاسلامية (مترجم) - مجلدين - القاهرة .
- انور عبد الغليم : أحمد بن ماجد - القاهرة ١٩٦٧
- اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار - ثلاثة أجزاء -
القاهرة ١٨٩٦/١٨٩٨/١٩٢٣
- توفيق ميخائيل : غرائب الأخبار عن شرق افريقية وزنجبار -
القاهرة ١٩٠١
- جورجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق - مجلدين - القاهرة
- جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا - القاهرة
١٩٦٧
- استقرار العرب في ساحل شرق افريقية - العدد العاشر - حوليات
كلية الآداب - جامعة عين شمس .
- حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية في افريقيا -
القاهرة ١٩٥٧
- حميد الدين الساملي : تحفة الاعيان بسيرة آل عمان - مجلدين -
القاهرة ١٣٥٠
- حوراني : الملاحة البحرية في المحيط الهندي .
- دافيدسون : افريقية تحت أضواء جديدة (مترجم) - بيروت ١٩٦٥
- زكريا القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد - بيروت ١٩٦٠
- زين الدين : تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين : لشبونة ١٨٩٨
- شوموفسكي (فيودور) ثلاث راهاجمات المجهولة - اصدار معهد
الاستشراق السوفيتي - ليننجراد ١٩٥٧
- عبد الله بن مصبح الصوافي : نقلا عن الشيخ محي الدين الزنجباري -
كتاب السلوة في أخبار كلوة - نشر آرثر سترونج ١٨٩٥
- العقاد وجمال زكريا قاسم - زنجبار - القاهرة ١٩٦٠
- كراتشكوفسكي (اغناطيوس بوليانوفتش) - مع المخطوطات العربية .
- الادب الجغرافي عند العرب - القسمين الأول والثاني - القاهرة ١٩٥٧
- لوثرروب ستودارد : ترجمة عجاج نوبهض وتعليق شكيب ارسلان -
حاضر العالم الاسلامي - مجلدين - القاهرة ١٣٤٣
- محمد صبري : تاريخ الامبراطورية المصرية السودانية في القرن التاسع عشر
- القاهرة ١٩٤٨
- مصر في افريقية الشرقية - القاهرة ١٩٣٩
- المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر - مجلدين - نشر دار الرجاء
القاهرة .

ناصر بن سالم بن عديم الرواحي : السيرة السنية المسماة باللوامع
البرقية في رحلة مولانا السلطان حمود بن محمد سعيد بن سلطان - زنجبار
١٣١٩

ياقوت الحموي : معجم البلدان - عدة مجلدات - القاهرة ١٩٠٦

رابعا - المصادر الأوربية :

Badger, Salil Bin Razik

History of the Imams and Seyyids of Oman

London 1871

Burton, Richard

Zanzibar city, Island and Coast

2 Vols

London 1836

Ferrand, Gabriel

Les Musulumanes de Madagascar et l'iles de Commores

2 Tomes

Hichienis

Islam in East Africa,

London

Ingrams, Arabia and Isles

Lopes David

Historia Portuguesa no Malabar.

Lispon 1898

Owen W. F.

Narrative to Explore the Shores of Arabia, Africa and

Madagascar

2 Vols

London 1833

Prins A. H.

The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and East Africa
Coast (Arab — Shiraz and Swahili)

East International African Institute

London 1961

Reinand,

Relation de Voyages fait par les Arabes et Persans
a l'Inde et de la Chine

2 Tomes

Paris, 1845

Ricci, A

Travels of Marcopolo

Ruete Emily

Memoires d'une Princeose Arabes

Paris, 1905

Ruete, Rudolf

— Said Bin Sultan

London 1929

— Dates and References of the Al Bin Said Dynasty of Oman
and East Africa

London

— The Al Bu Said Dynasty in Oman and East Africa

Journal of the Central Asian Society

Vol VXi, 1929

Stigand,

In the land of Zinj

London 1913

Strong, Arthur

History of Kilwa

Journal of the Royal Asiatic Society

April 1895

Warner

A Swahili History of Pate

Journal of the African Society

Vol. XIV, 1913